

الرسالة التاسعة

في بيان الأخلاقِ وأسباب اختلافها وأنواعِ عللها ونُكت من آداب الأنبياء،
وزُبد من أخلاق الحكماء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وإذ قد فرغنا من ذكر الجواهر الجسمانية ووصفنا هيولاتها وصورها وتركيبها.
وإذ فرغنا من ذكر تصاريف الأحوال بالإنسان في الرحم من يوم مسقط النطفة إلى
يوم ولادة الجسد، وبيئاً كيف ينضاف إلى خلقة الجنين قوى روحانيات الكواكب، وكيف
تنطبع في جبلته الأخلاق المختلفة المركوزة في الطبيعة تسعة أشهر شهراً بعد شهر الذي
هو المكث الطبيعي إلى يوم ولادة الطفل، واستتفاف الإنسان العمر في الحياة الدنيا مائة
وعشرين سنة الذي هو العمر الطبيعي في رسالة مسقط النطفة؛ فنريد أن نذكر في هذه
الرسالة ما ينضاف إلى تلك الطباع المركوزة في الأخلاق المكتسبة بعد الولادة بالعبادات
الجارية والأسباب الداعية المولدة لها، إما زائدة عليها أو ناقصة عنها في تصاريف أيام
الحياة الدنيا إلى يوم الممات الذي هو مفارقة النفس الجسد وولادتها الثانية التي هي
النشأة الأخرى، كما ذكر الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: النشأة الآخرة، وقال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال الله —
عز وجل: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) فصل في قابلية الإنسان جميع الأخلاق

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لَمَّا أراد أن يجعل في الأرض خليفةً له من البشر؛ ليكونَ العالم السفلي الذي هو دون فلك القمر عامراً بكون الناس فيه، مملوءاً من المصنوعات العجيبة على أيديهم، محفوظاً على النظام والترتيب بالسياسات الناموسية والملكوتية والفلسفية والعامية والخاصية جميعاً؛ ليكون العالم باقياً على أتم حالاته وأكمل غاياته، كما ذكر في السفر الرابع من صحف هرمس وهو إدريس النبي — عليه السلام — وذكرناه في الرسالة الجامعة، وأشرنا إليه في رسائلنا، وكما سنبين في هذه الرسالة.

فبدأ أولاً ربنا تعالى فبنى لخليفته هيكلاً من التراب عجيب البنية، ظريف الخلقة، مختلف الأعضاء، كثير القوى، ثم ركبها وصوَّرها في أحسن صورة من سائر الحيوانات؛ ليكون بها مفضلاً عليها، مالكا لها، متمصفاً فيها كيف يشاء، ثم نفخ فيه من روحه، فقرن ذلك الجسد الترابي بنفس روحانية من أفضل النفوس الحيوانية وأشرفها؛ ليكون بها متحرراً حساساً دراكاً عاملاً فاعلاً ما يشاء.

ثم أيد نفسه بقوى روحانية سائر الكواكب في الفلك؛ ليكون متهيئاً له بها، وممكناً له قبول جميع سائر الأخلاق، وتعلم جميع العلوم والآداب والرياضيات والمعارف والسياسات، كما مكنه وهياً له بأعضاء بدنه المختلفة الأشكال والهيئات تعاطي جميع الصنائع البشرية والأفعال الإنسانية والأعمال الملكية.

وذلك أنه قد جمع في بنية هيكله جميع أخلاط الأركان الأربعة وكل المزاجات التسعة في غاية الاعتدال؛ ليكون بها متهيئاً وقابلاً لجميع أخلاق الحيوانات وخواص طباعها؛ كل ذلك كيما يسهل عليه ويتهيأ له إظهارُ جميع الأفعال والصنائع العجيبة والأعمال المتقنة المختلفة والسياسات المحكمة؛ إذ كان إظهارها كلها بعضو واحد وأداة واحدة وخلق واحد ومزاج واحد؛ يتعذر على الإنسان، كما بيَّنا في رسالة الصنائع البشرية.

والغرض من هذه كلها هو أن يتمكن للإنسان ويتهيأ له التشبهُ بإلهه وباريه الذي هو خليفته في أرضه وعامر عالمه، ومالك ما فيه وسائس حيوانها ومربي نباتها ومستخرج معادنها ومتحكم ومتسلط على ما فيها، ليدبرها تدبيرات سياسية ويسوسها سياسة ربوبية، كما رسم له الوصايا الناموسية والرياضات الفلسفية؛ كل ذلك كيما تصير نفسه بهذه العناية والسياسة والتدبير ملكاً من الملائكة المقربين، فينال بذلك الخلود في النعيم

أبد الآبدين ودهر الدهرين، كما ذكر في بعض كتب أنبياء بني إسرائيل، قال الله تعالى: «يا ابن آدم خلقتك للأبد، وأنا حي لا أموت؛ أطعني فيما أمرتك به، وائتبه عما نهيتك عنه؛ أجعلك حياً لا تموت أبداً، يا ابن آدم أنا قادر على أن أقول للشيء: كُنْ فيكون؛ أطعني فيما أمرتك به، وائتبه عما نهيتك عنه؛ أجعلك قادراً على أن تقول للشيء: كن فيكون.»

وإذ قد تبين بما ذكرنا ما الغرض وما المراد من وجود الأخلاق المختلفة في جِبِلَّةِ الإنسان وطبيعته؛ فنريد أن نذكر العلل والأسباب التي بها ومن أجلها تختلف أخلاق البشر وسجاياهم: كم هي، وما هي، وكيف هي؟ إذ قد تبين فيما تقدم: لم هي؟

(٢) فصل في وجوه اختلاف الأخلاق

اعلم يا أخي أن أخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه؛ أحدها من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها، والثاني من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها، والثالث من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأستاذيهم ومن يربيهم ويؤدبهم، والرابع من جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم ومساقط نطفهم، وهي الأصل وبقايتها فروع عليه، ونحتاج إلى شرح هذا الباب؛ ليتبين صدق ما قلنا وحقيقة ما وصفنا، ونبدأ أولاً بذكر العلل والأسباب التي تكون من جهة أخلاط الجسد وتغيرت أمزجتها من الاعتدال والزيادة والنقصان، وما يتبعها من الخلق والسجايا المختلفة المتضادة.

(٣) فصل في اختلاف الأخلاق من جهة الأخلاط

اعلم يا أخي بأن المحروري الطباع من الناس وخاصة مزاج القلب يكونون على الأمر الأكثر شجعان القلوب، أسخياء النفوس، متهورين في الأمور المخوفة، قليلي الثبات والتأني في الأمور، مستعجلي الحركة، شديدي الغضب، سريعي المراجعة، قليلي الحقد، أذكياء النفوس، حادّي الخواطر، جيدي التصور. والمبرودين في الأمر الأكثر يكونون بليدي الذهن، غليظي الطباع، ثقيلي الأرواح، غير نضيجي الأخلاق، والمرطوبين يكونون في أكثر الأمر ذوي طباع بليدة وقلة ثبات في الأمور، ليني الجانب، سمحاء النفوس، طيبي الأخلاق، سهلي القبول، سريعي النسيان، مع كثرة تهور في الأمور الطبيعية. واليابسي المزاج يكونون في أكثر الأمور صابرين في الأعمال، ثابتي الرأي، عسري القبول، الغالب عليهم الصبر والحقد والبخل والإمساك والحفظ.

(٤) فصل في خلق آدم عليه السلام — كما وجد في بعض كتب بني إسرائيل

وجد في بعض كتب أنبياء بني إسرائيل من صفة خلقة آدم وتكوين جسده أن الله — عز وجل — حين ابتدعه واخترعه قال: إني خلقت آدم وركبت بدنه من أربعة أشياء، ثم جعلتها وراثه في ولده وذريته تنشأ في أجسادهم، وينمون عليها إلى يوم القيامة، رَكِبْتُ جسده من رطب ويابس وحرارٌ وبارد، وذلك أني خلقت من تراب وماء، ثم نفخت فيه نفسًا وروحًا فيبوسة جسده من قبل التراب، ورطوبته من قبل الماء، وحرارته من النفس، وبرودته من الروح. ثم جعلت في الجسد بعد هذا أربعة أنواعٍ أخرى، هن ملاكُ أمور الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن، ولا تقوم واحدةٌ منهن إلا بالأخرى، فمنهن المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم والبلغم، ثم أسكنتُ بعضها في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، والحرارة في المرة الصفراء، والرطوبة في الدم، والبرودة في البلغم، فأیما جسد اعتدلت فيه هذه الأربعة الأخلاط التي جعلتها ملاكه وقوامه، وكانت كل واحدة منهن ربيعًا لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته، واعتدلت بنيته، وإن زادت واحدة منهن على أخواتها وقهرتهن ومالت بهن، دخل السقم على الجسد من ناحيتها بقدر ما زادت، وإذا كانت ناقصة ضعفت طاقتها عن مقاومتها فغلبنها ودخل السقم على الجسد من نواحيها بقدر قلتها عنهن وضعف طاقتها عن مقاومتها.

ثم علمته الطب وكيفية الدواء وكيف يزيد في الناقص أو ينقص في الزائد حتى يعتدل ويستقيم أمر الجسد، فالطبيب الماهر العالم بالداء والدواء هو الذي يعرف من أين دخل السقم على الجسد من الزيادة والنقصان ويعلم الدواء الذي يعالج به، فيزيد في ناقصها وينقص من زائدها حتى يستقيم أمر الجسد على فطرته ويعتدل الشيء بأقرانه.

ثم صيرتُ هذه الأخلاط التي ركبت عليها الجسد فطرًا وأصُولًا عليها تبني أخلاق بني آدم وبها توصف، فمن التراب العزم، ومن الماء اللين، ومن الحرارة الحدة، ومن البرودة الأناة، فإن مالت به اليبوسة، وأفرطت كانت عزمته قساوة وفضاظة، وإن مالت به الرطوبة كان لينه توائيًا ومهانة، وإن مالت به الحرارة كانت حدته طيشًا وسفاهة، وإن مالت به البرودة كانت أناة ريثًا وبلادة، وإن اعتدلت وكن سواءً اعتدلت أخلاقه، واستقام أمره، وكان عازمًا في أناة لينًا في عزمه، هادئًا في لينه، متأنياً في حدته، لا يغلبه خلق من أخلاقه، ولا تميل به طبيعة من أخلاقه عن المقدار المعتدل من أيها شاء استكثر، ومن أيها شاء قلل وكيف شاء عدل.

ثم نفخت فيه من روحي، وقرنت بجسده نفساً وروحاً، فبالنفس يسمع ابن آدم ويبصر ويشم ويذوق ويلمس ويحس ويأكل ويشرب وينام ويقعد ويضحك ويبكي ويفرح ويحزن، وبالروح يعقل ويفهم ويدري وَيَتَعَلَّمُ ويستحي ويحلم ويحذر ويتقدم ويمنع ويتكرم ويقف ويهجم، فَمِنَ النَّفْسِ تَكُونُ حُدُوثُهُ وَخَفَتُهُ وشهوته ولعبه ولهوه وضحكه وسفهه وخداعه ومكره وعنفه وخرقه، ومن الروح يكون حلمُهُ ووقارُهُ وعفافُهُ وحيأُوهُ وبهاوُهُ وفهمه وتكرمه وحذقه وصدقه ورفقه وصبره.

فإذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلقٌ من أخلاق النفس، قابله بضده من أخلاق الروح، وألزمه إياه فيعدله به ويقومه، فيقابل الحدة بالحلم والخفة بالوقار والشهوة بالعفاف واللعب بالحياء، واللهو بالبهاء، والضحك بالهم، والسفه بالكرم، والخداع بالشجاعة، والكذب بالصدق، والعنف بالرفق، والنزق بالصبر، والخرق بالأناة؛ إذ كل مرض يعالج بضده، ومن التراب تكون قساوته وبخله وفضاظته وشحه ويأسه وقنوطه وعزمه وإصراره، ومن الماء يكون لينه وسهولته واسترساله ومعروفه وتكرمه وسماحته وقوته وقربه وقبوله ورجاؤه واستبشاره.

فإذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلقٌ من أخلاقه الترابية؛ قابله بضده من الأخلاق المائية، وألزمه إياه ليعدله ويقومه، فيقابل القسوة باللين، والبخل بالعطاء، والفضاظة بالبشر، والشح بالكرم، واليأس بالرجاء، والقنوط بالاستبشار، والعزم بالقبول، والإصرار بالعدل.

واعلم يا أخي بأن لكل خلق من الأخلاق أخوات مشاكلات، ولهن أصدقاء مخالقات، ولهن كلهن أفعال متباينات متضادات تحتاج إلى شرح لتبين وتعرف؛ لأن هذا الباب من العلوم الشريفة والمعارف اللطيفة؛ إذ كان من هذا الفن تعرف أخلاق الكرام من بني آدم، وأخلاق الملائكة الذين هم سُكَّانُ الجنان كما ذكر الله تعالى، فقال: ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ و﴿كَرَامٍ بَرَّةٍ﴾، ومن هذا الباب تُعرف أيضاً أخلاق الشياطين الذين هم أهل النيران كما ذكر الله تعالى بقوله: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا وَقَالُوا لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ؛ وإذ قد تبين بما ذكرنا طرف من الأسباب المؤدية إلى اختلاف أخلاق الإنسان من جهة مزاج أخلاط جسده؛ فنريد أيضاً أن نذكر طرفاً من الأسباب التي تكون من جهة اختلاف تربة البلاد وتغييرات أهويتها المؤدية إلى اختلاف الأخلاق.

(٥) فصل في تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق

واعلم يا أخي بأن ترب البلاد والمدن والقرى تختلف وأهويتها تتغير من جهات عدة، فمنها كونها في ناحية الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب أو على رءوس الجبال أو في بطون الأودية والأغوار أو على سواحل البحار، أو شطوط الأنهار أو في البراري والقفار أو في الآجام والدحال والأرض ذات الرملة والأرضين السبخة السهلة، أو في البقاع الصخرية والحجارة والحصى والرمال أو في الأرضين السهلة والتربة اللينة بين الأنهار والأشجار والزروع والبساتين والزهر والنور.

وأيضًا فإن أهوية البلاد والبقاع تختلف بحسب اختلاف تصاريف الرياح الأربع ونكباتها، وبحسب مطالع البروج عليها ومطارح شعاعات الكواكب عليها من أفاقها، وهذه كلها تؤدي إلى اختلاف أمزجة الأخلاط، واختلاف أمزجة الأخلاط يؤدي إلى اختلاف أخلاق أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم، لا يشبه بعضها بعضًا بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التي تقدّم ذكرها لا يشاركها فيها غيرها.

مثال ذلك: أن الذين يولدون في البلاد الحارة ويتربّون هناك وينشأون على ذلك الهواء؛ فإن الغالب على باطن أمزجة أبدانهم البرودة، وهكذا أيضًا الذين يولدون في البلدان الباردة ويتربّون هناك، وينشأون على ذلك الهواء، يكون الغالب على باطن أمزجة أبدانهم الحرارة؛ لأن الحرارة والبرودة هما ضدان لا يجتمعان في حال واحدة، في موضع واحد، ولكن إذا ظهر أحدهما استبطن الآخر واستجن؛ ليكونا موجودين في دائم الأوقات؛ إذ كانت المكونات لا وجود لها ولا قوام إلا بهما، والدليل على ما قلنا أن مزاج أبدان أهل البلدان الجنوبية من الحبشة والزنج والتربة وأهل السند وأهل الهند، فإنه لما كان الغالب على أهوية بلادهم الحرارة بمرور الشمس على سمت تلك البلاد في السنة مرتين سخنت أهويتها، فحمي الجو فاحترقت ظواهر أبدانهم واسودت جلودهم وتجدت شعورهم لذلك السبب وبردت بواطن أبدانهم، وابيضت عظامهم وأسنانهم، واتسعت عيونهم ومناخرهم وأفواههم بذلك السبب.

وبالعكس في هذا حال أهل البلدان الشمالية وعلتها أن الشمس لما بعدت من سمت تلك البلاد وصارت لا تمر عليها لا شتاءً ولا صيفًا، غلب على أهويتها البرد وبيضت لذلك جلودهم، وترطبت أبدانهم، واحمرت عظامهم، وأسنانهم، وكثرت الشجاعة والفروسة فيهم، وسببت شعورهم، وضافت عيونهم، واستجنحت الحرارة في بواطن أبدانهم لذلك

السبب، وعلى هذا القياس توجد صفات أهل البلدان المتضادة بالطباع والأهوية يكونون مختلفين في الطباع والأخلاق في أكثر الأمر وأعمّ الحالات.

وإذ قد تبينَ بما ذكرنا طرف من تغير أخلاق الناس من جهة اختلاف ترب البلاد وتغير أهويتها؛ فنريد أن نذكر طرفاً من أسباب موجبات أحكام النجوم، فنقول: إن الذين يولدون بالبروج النارية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب النارية مثل المريخ وقلب الأسد وما شاكلهما من الكواكب؛ فإن الغالب على أمزجة أبدانهم الحرارة وقوة الصفراء، والذين يولدون بالبروج المائية في الأوقات التي يكون المستولي عليها الكواكب المائية مثل الزهرة والشعري اليمانية؛ فإن الغالب على أمزجة أبدانهم يكون الرطوبة والبلغم.

وهكذا الذين يولدون بالبروج الترابية في الأوقات التي يكون المستولي عليها زحل وما شاكله من الكواكب الثابتة، فإن الغالب على أمزجة أبدانهم اليبوسة والمرة السوداء. وهكذا الذين يولدون بالبروج الهوائية في الأوقات التي يكون المستولي عليها المشتري وما شاكله من الكواكب الثابتة؛ فإن الغالب على أمزجة أبدانهم الدم والاعتدال. يعرف حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفنا أهل الصناعات والتجارب.

وإذ قد تبين بما قلنا وذكرنا ما الأسباب والعلل الموجبة لوجود الأخلاق المركوزة في الجبلية؛ فنريد أن نبين ما الأخلاق المركوزة في الجبلية، وما المكتسبة بالعادة الجارية منها، وما الغرض في ذلك، وما الفرق بينهما، يعني: الأخلاق المكتسبة والمركوزة.

(٦) فصل في ماهية الأخلاق

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن الأخلاق المركوزة في الجبلية هي تَهَيُّؤ ما في كل عضو من أعضاء الجسد يسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال أو عمل من الأعمال أو صناعة من الصنائع أو تعلم علم من العلوم أو أدب من الآداب أو سياسة من غير فكر ولا روية، مثال ذلك أنه متى كان الإنسان مطبوعاً على الشجاعة فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المخوفة من غير فكر ولا روية، وهكذا متى كان مطبوعاً على السخاء يسهل عليه بذل العطية من غير فكر ولا روية، وهكذا متى كان الإنسان مطبوعاً على العفة سهل عليه اجتناب المحظورات المحرمات من غير فكر ولا روية.

وهكذا من كان مطبوعاً على الاعتدال؛ سهل عليه الحكومة في الخصومات والعدل والنصفة في المعاملات، وعلى هذا المثال والقياس سائر الأخلاق والسجاي المطبوعة في الجبلية

المركوزة فيها، إنما جعلت؛ لكي ما يسهل على النفس إظهار أفعالها وعلومها وصنائعها وسياساتها وتديريها بلا فكر ولا روية.

وأما من كان مطبوعاً على الضد من ذلك فهو يحتاج عند استعمال هذه الخصال وإظهار هذه الأفعال إلى فكر وروية واجتهاد شديد وكلفة ولا يفعل الإنسان هذه الأمور إلا بعد أمر ونهي ووعده ووعيد ومدح وذم وترغيب وترهيب، وعلى هذا المثال يكون كل حكم في الطبع خلافه، يحتاج صاحبه إلى أمر ونهي وفكر واجتهاد ورغبة، وبهذه العلة وَرَدَتْ أَكْثَرُ أوامرِ الناموس ونواهيها؛ ولهذا السبب كان وعده ووعيده وترغيبه وترهيبه، ولو كان الإنسان الواحد مطبوعاً على جميع الأخلاق لَمَا كان عليه كلفةٌ في إظهار كل الأفعال وجميع الصنائع، ولكن الإنسان المطلق الكلي هو المطبوعُ على قبول جميع الأخلاق وإظهار جميع الصنائع والأعمال لا الإنسان الجزئي.

واعلم بأن كل الناس أشخاص لهذا الإنسان المطلق، وهو الذي أشرنا إليه أنه خليفةُ الله في أرضه منذ يوم خلق آدم أبو البشر إلى يوم القيامة الكبرى، وهي النفس الكلية الإنسانية الموجودة في كل أشخاص الناس، كما ذكر — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بقوله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ كَمَا بَيَّنَّا فِي رسالة البعث.

واعلم يا أخي، أيدك الله بروح منه، بأن هذا الإنسان المطلق الذي قلنا هو خليفةُ الله في أرضه، وهو مطبوعٌ على قبول جميع الأخلاق البشرية وجميع العلوم الإنسانية والصنائع الحكيمة هو موجودٌ في كل وقتٍ وزمانٍ، ومع كل شخص من أشخاص البشر تظهر منه أفعاله وعلومه وأخلاقه وصنائعه، ولكن من الأشخاص مَنْ هو أَشَدُّ تَهَيُّؤًا لقبول علم من العلوم أو صناعة من الصنائع أو خُلُقٍ من الأخلاق، أو عمل من الأعمال، والإظهار بحسب ذلك يكون.

مطلب في التربية

واعلم بأن العادات الجارية بالمدائمة فيها تقوي الأخلاق المشاكلة لها، كما أن النظر في العلوم والمدائمة على البحث عنها والدرس لها والذاكرة فيها يقوي الحذق بها والرسوم فيها، وهكذا المدائمة على استعمال الصنائع والدعوب فيها يقوي الحذق والأستاذية فيها، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا.

والمثال في ذلك أن كثيراً من الصبيان إذا نشئوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم، وهكذا أيضاً كثير من الصبيان إذا

نشئوا مع النساء والمخانيث والمعييين وتربوا معهم تطبعوا بأخلاقهم وصاروا مثلهم، إن لم يكن في كل الخلق فقي بعض.

وعلى هذا القياس يجري حكمُ سائر الأخلاق والسجاي التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الإخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصارييف أحوالهم، وعلى هذا القياس حكم الآراء والمذاهب والديانات جميعاً.

فصل

واعلم يا أخي بأن من الناس مَنْ يكونُ اعتقادهُ تابعاً لأخلاقه، ومنهم من تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده؛ وذلك أن مَنْ يكون مطبوعاً على طبيعة مريخية فإنه تميل نفسه إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها التعصب والجدال والخصومات أكثر، وهكذا أيضاً مَنْ يكون مطبوعاً على طبيعة مشترية، فإنه تكون نفسه مائلةً إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها الزهد والورع واللين أكثر، وعلى هذا القياس توجد آراء الناس ومذاهبهم تابعة لأخلاقهم. وأما الذي تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد رأياً أو مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلةً لمذهبه واعتقاده؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرته مذهبه وتحقيق اعتقاده في جميع متصرفاته، فيصير ذلك خلقاً له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركها لها.

وعلى هذا الجنس من الأخلاق تقع المجازاة من المدح والذم والثواب والعقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لأنه اكتساب من صاحبه وفعل له، والمثال في ذلك ما جاء في الخبر أن رجلين اصطحبا في بعض الأسفار، أحدهما مجوسي من أهل كرمان، والآخر يهودي من أهل أصفهان، وكان المجوسي راكباً على بغلة عليها كل ما يحتاج إليه المسافر في سفره من الزاد والنفقة والأثاث، فهو يسير مرفهاً، واليهودي كان ماشياً ليس معه زاد ولا نفقة، فبينما هما يتحدثان؛ إذ قال المجوسي لليهودي: ما مذهبك واعتقادك يا خوشاك؟ قال اليهودي: اعتقادي أن في هذه السماء إلهاً هو إله بني إسرائيل وأنا أعبده وأسأله وأطلب إليه، ومنه سعة الرزق وطول العمر وصحة البدن والسلامة من الآفات والنصرة على الأعداء؛ أريد منه الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي، ولا أفكر فيمن يخالفني في ديني ومذهبي، بل أرى وأعتقد أن من يخالفني في ديني ومذهبي فحلل لي دمه وماله، وحرام علي نصرته أو نصيحتته أو معاونته أو الرحمة أو الشفقة عليه.

ثم قال للمجوسي: قد أخبرتك عن مذهبي واعتقادي لَمَّا سألتني عنه، فأخبرني يا مغا، أنت أيضاً عن مذهبك واعتقادك، قال المجوسي: أما اعتقادي ورأيي فهو أنني أريد الخير لنفسي ولأبناء جنسي كلهم ولا أريد لأحد من الخلق سوءاً، لا لمن كان على ديني ويوافقني ولا لمن يخالفني ويضادني في مذهبي.

فقال اليهودي له: وإن ظلمك وتعدى عليك؟ قال نعم؛ لأنني أعلم أن في هذه السماء إلهًا خبيرًا فاضلاً عادلاً حكيماً عليماً لا تخفى عليه خافية في أمر خلقه، وهو يجازي المحسنين بإحسانهم ويكافئ المسيئين على إساءتهم.

فقال اليهودي للمجوسي: فلست أراك تنصر مذهبك وتحقق اعتقادك، فقال المجوسي وكيف ذلك؟ قال؛ لأنني من أبناء جنسك وأنت تراني أمشي متعوباً جائعاً، وأنت راكب شبعان مترفه، قال: صدقت، وماذا تريد؟ قال: أطعمني واحملي ساعة لأستريح فقد أعيتت، فنزل المجوسي عن بغلته وفتح له سفرته، فأطعمه حتى أشبعه، ثم أركبه ومشى معه ساعة يتحدثان، فلما تمكن اليهودي من الركوب، وعلم أن المجوسي قد أعيا حرك البغلة وسبقه وجعل المجوسي يمشي فلا يلحقه، فناداه: يا خوشاك، قف لي وانزل فقد أعيتت، فقال له اليهودي: أليس قد أخبرتك عن مذهبي يا مغا، وخبرتني عن مذهبك ونصرته وحققته، وأنا أريد أيضاً أن أنصر مذهبي وأحقق اعتقادي.

وجعل يجري البغلة والمجوسي في أثره يعدو، ويقول: ويحك يا خوشاك، قف لي قليلاً، واحملي معك، ولا تتركني في هذه البرية تأكلني السباع وأموت جوعاً وعطشاً وارحمني كما رحمتك، وجعل اليهودي لا يفكر في ندائه، ولا يلوي عليه حتى مضى وغاب عن بصره، فلما ينس المجوسي منه وأشرف على الهلاك تذكر تمام اعتقاده وما وصف له بأن في السماء إلهًا خبيرًا فاضلاً عالماً عادلاً لا يخفى عليه من أمر خلقه خافية، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: يا إلهي، قد علمت أنني قد اعتقدت مذهباً ونصرته وحققته ووصفتك بما سمعت وعلمت وتحققته، فحقق عند اليهودي خوشاك ما ووصفتك به ليعلم حقيقة ما قلت.

فما مشى المجوسي إلا قليلاً حتى رأى اليهودي، وقد رمت به البغلة فاندقت عنقه، وهي واقفة بالبعد منه تنتظر صاحبها، فلما لحق المجوسي بغلته ركبها ومضى لسبيله، وترك اليهودي يقاسي الجهد ويعالج كرب الموت، فناداه اليهودي: يا مغا، ارحمني واحملي ولا تتركني في هذه البرية تأكلني السباع وأموت جوعاً وعطشاً، وحققت مذهبك، وانصر اعتقادك، قال المجوسي: قد فعلت مرة، ولكن بعد لم تفهم ما قلت لك ولم تعقل ما وصفت لك، فقال اليهودي: وكيف ذلك؟ فقال: لأنني وصفت لك مذهبي فلم تصدقني بقولي حتى

حقيقته بفعلي، وأنت بعد لم تعقل ما قلت لك، وذلك أني قلت لك: إن في هذه السماء إلهاً خبيراً فاضلاً عالمًا عادلاً لا يخفى عليه خافية، وهو يجازي المحسنين بإحسانهم، ويكافئ المسيئين بإساءتهم، قال اليهودي: قد فهمت ما قلت وعلمت ما وصفت، فقال له المجوسي: فما الذي منعك أن تتعظ بما قلت لك يا خوشاك؟ فقال لليهودي: اعتقادُ قد نشأت عليه ومذهب قد ألفتَه وصار عادةً وجبلة بطول الدعوب فيه وكثرة الاستعمال له؛ اقتداءً بالأباء والأمهات والأستاذين والمعلمين من أهل ديني ومذهبي، فقد صار جبلةً وطبيعةً ثابتةً يصعب عليّ تركها والإقلاع عنها.

فرحمه المجوسي وحمله معه حتى جاء به إلى المدينة وسلمه إلى أهله مكسورًا، وحدث الناس بقصته وحديثه معه فجعلوا يتعجبون، فقال بعض الناس للمجوسي: كيف حملته بعد شدة جفائه بك وقبيح مكافأته إحسانك إليه؟ قال المجوسي اعتذر إليّ، وقال: مذهبي كيت وكيت، وقد صار جبلةً وطبيعةً ثابتةً لطول الدعوب فيه وجريان العادة به، يصعب الإقلاع عنها والترك لها، وأنا أيضًا قد اعتقدت رأيًا، وسلكت مذهبًا صار لي عادةً وجبلةً فيصعب الإقلاع عنها والترك لها.

وإذ قد تبين بما ذكرنا أن العلل الموجبة لاختلاف أخلاق النفوس والأسباب المؤدية إليها أربعة أنواع حسب، كما قلنا في أول الرسالة؛ فنقول الآن: إن الأخلاق كلها نوعان، إما مطبوعة في جبلة النفوس مركوزة فيها، وإما مكتسبةً معتادةً من جريان العادة وكثرة الاستعمال، ومن وجه آخر أيضًا إن الأخلاق نوعان، منها ما هي أصول وقوانين، ومنها ما هي فروعٌ وتابعةٌ لها، فنحتاج أن نبينها ونفصلها ليُعرف بعضها من بعض؛ إذ كان هذا الفن من المعرفة من العلوم الشريفة النافعة جدًّا، وخاصة لمن له عنايةً بريضة النفس وتهذيبها وإصلاح أخلاقها؛ إذ كانت أخلاق النفوس هي أحد الأسباب المنجية لها من الهلكة، المفصلة بعضها من بعض، كما بيَّنا في رسالة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

(٧) فصل في مراتب الأنفس

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الباربي — جَلَّ ثناؤُهُ — لَمَّا أَبَدَعَ النفوس واخترعها وأبرزَ المستكَنَّ والمستجنَّ من الكائنات رتبها ونظمها كمراتب الأعداد المفردات — كما ذكر تعالى بقوله حكاية عن الملائكة قولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

واعلم يا أخي بأن أعداد النفوس كثيرة لا يُحصيها إلا الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، ولكن نحتاج أن نذكر طرفاً من مراتبها ومقاماتها الجنسية؛ إذ كانت الأنواع والأشخاص لا يمكن تعديدها ولا يعلمها إلا هو.

واعلم يا أخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع، فمنها مرتبة الأنفس الإنسانية، ومنها ما هي فوقها، ومنها ما هي دونها، فالتالي هي دونها سبع مراتب، والتي فوقها سبع أيضاً، وجملتها خمس عشرة مرتبة.

والمعلوم من هذه المراتب التي ذكرناها عند العلماء، ويمكن لكل عاقل أن يعرفها ويحس بها؛ خمس، منها اثنتان فوق رتبة الإنسانية وهي رتبة الملكية والقدسية، ورتبة الملكية هي رتبة الحكمية، ورتبة القدسية هي رتبة النبوة والناموسية، واثنتان دونها وهي مرتبة النفس النباتية والحيوانية، ويعلم صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا الناظرون في علم النفس من الحكماء والفلاسفة وكثير من الأطباء.

وأما الـرتبتان اللتان فوق رتبة الإنسانية فهي مرتبة الحكمة وفوقها الناموسية، وأما مرتبة الإنسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وأما التي فوق هذه فما أشار إليه بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾؛ يعني الإنسان ﴿أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وقال أيضاً: ﴿أَوْمَنَ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾؛ يعني الإنسان أحيينا نفسه بنور الهداية، وهذه هي مرتبة نفوس المؤمنين العارفين والعلماء الراسخين.

فأما التي فوقها فمرتبة النفوس النبوية الواضعين النواميس الإلهية، وإليها أشار بقوله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، وهذه المرتبة تلي مرتبة القدسية الملكية، فقد تبين بما ذكرنا المراتب الخمس التي يمكن الإنسان أن يعلمها ويحس بها، فأما المراتب التي دون النباتية وفوق القدسية فبعيدة معرفتها على المتراضين بالعلوم الإلهية، فكيف على غيرهم؛ وإذ قد فرغنا من ذكر ما أردنا أن نُقدِّمه فنقول الآن ونخبر بكل ما يخص كل نوع من هذه النفوس الخمس من المعونة والتأييد.

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لما ربط الأنفس الجزئية بالأجسام الجزئية للعلة التي ذكرناها في رسالة «الإنسان عالم صغير» أيدها وأعانها بضروب من المعاونة وفنون من التأييدات؛ كل ذلك جود منه ولطف بها، وإنعام منه عليها وإفضال وإحسان إليها وإكرام لها، وذلك أنه كلما بلغت نفس منها رتبة ما،

أمدّها بزيادة فضلاً منه وجودًا أو نقلها إلى ما فوقها وأرفع منها وأعز وأشرف وأجل وأكرم؛ كل ذلك ليبلغها إلى أقصى مدى غاياتها وتمام نهاياتها.

وإذ قد تَبَيَّنَ بما ذكرنا مراتب النفوس الخمس وما الفائدة والحكمة في رباطها بالأجسام؛ فنريد أن نذكر ما يخص كل نوع منها من المعاونة والتأييد، وهي القوى الطبيعية والأخلاق المركوزة والهياكل الجسمانية والأدوات الجسدانية والشعورات الحسية والأوهام الفكرية والحركات المكانية والأفعال الإرادية والأعمال الاختيارية والصنائع الحكيمة والأوضاع الناموسية والسياسات الملكوتية، ونبدأ أولاً بذكر الشهوات المركوزة في الجبلّة والقوى الطبيعية المعينة لها؛ إذ كانت هي الأصل والقانون في جميع القوى والأخلاق والخصال والأفعال والحركات والحس والشعور بها ومن أجلها — كما سنبين بعد.

فصل

وأعلم يا أخي بأن من الأخلاق والقوى ما هي منسوبة إلى النفس النباتية الشهوانية، ومنها ما هي منسوبة إلى الحيوانية الغضبية، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الإنسانية الناطقة، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس العاقلة الحكيمة، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الناموسية الملكية.

فأما المنسوبة إلى النفس الشهوانية من الخصال والقوى التي تخصها، فأولها شهوة الغذاء وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشتهيات والرغبة فيها والحرص في طلبها واحتمال المشقة والذل من أجلها والفرح والسرور بوجودها والراحة واللذة في تناولها والملل والشبع عند الاستكفاء منها، والنفور من الضار منها والبغض له.

ومن القوى المختصة بها أيضاً القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة، ومن الشعور والتميز معرفة الجهات الست، ومن الأفعال إرسال العروق نحو الجهات الندية والتراب اللين، وتوجيه الفروع والقضبان إلى الجهات المتسعة والميل والانحراف عن الأمكنة الضيقة والأجسام المؤذية.

كل هذه الخصال مركوزة في الجبلّة من غير فكرٍ ولا روية، وكل ذلك معاونة من الطبيعة لنفوسها وتأييد لها بإذن باريها — جَلَّ تَنَازُهُ — على طلب مشتهياتها والوصول إلى منافعها والفرار من المضرة منها؛ إذ كانت تلك المشتهيات هي غذاء لأجسامها ومادة لقوامها وسبباً لبقائها كلها؛ إذ كان في بقائها كلها تتميم لمعارفها وتكميل لفضائلها، وفي تتميم معارفها وتكميل فضائلها تَرَقُّ لها إلى أفضل حالاتها وأشرف نهاياتها.

وأما المنسوبة إلى النفس الحيوانية المختصة بها من الخصال المركوزة في الجبلية زيادة على ما تقدم فهي شهوةُ الجماع وشهوة الانتقام وشهوة الرياسة، ولها أيضاً الهياكل اللحمية، والأعضاء المختلفة للأغراض العجيبة، والمفاصل اللينة للحركات المكانية والتنقل في الجهات الست لمآرب ومنافع كثيرة، ولها الشعور بالحواس المخصوصة والأصوات المختلفة لدلالات متباينة.

ولها أيضاً الوهم والتخيل للمطالب والمنافع والحفظ والذكر لعرفان أبناء الجنس والمخالف، وإمكان الاحتراس من المضار، والنفور والفرار من العدو؛ كل هذه مركوزة في جبلية الحيوانات القريبة النسبة إلى الإنسان، فأما علة شهوة الجماع المركوزة في جبلتها فهي من أجل التناسل، والتناسل هو من أجل بقاء الصورة في الأشخاص المتواترة؛ إذ كانت الهيولى دائمة في السيلان لا تقف طرفة عين، وأما علة شهوة الانتقام المركوزة في جبلتها فهي من أجل دفع المضرات المفسدات لهياكلها المتشخصة.

واعلم يا أخي بأنَّ دفع المضار تارة يكون بالقهر والغلبة، وتارة يكون بالهرب والفرار وتارة بالتحرُّز والتحصن، وتارة بالمكر والحيلة، كما قد شرحنا ذلك في رسالة الحيوانات، وأما شهوةُ الرياسة المركوزة في جبلتها فهي من أجل تأكيد السياسة؛ إذ كانت السياسة لا تتم إلا بعد وجدان الرياسة.

واعلم يا أخي بأن المراد من السياسة هو صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات وأتم الغايات — كما سنبين في فصل آخر.

وأما المنسوبة إلى النفس الناطقة المختصة بها زيادة على ما تقدم ذكره، فهي شهوةُ العلوم والمعارف والتبجُّر والاستكثار منها، وشهوة الصنائع والأعمال والحدق فيها والافتخار بها وشهوة العِزِّ والرفعة والترقي في غايات نهاياتها والشوق إليها والرغبة فيها، والحرص في طلبها، واحتمال الذل والمشقة من أجلها، والفرح والسرور من وجدانها واللذة والراحة عند الوصول إليها، والغم والحزن من فقدانها.

(٨) فصل في اختلاف مناهج النفوس

واعلم يا أخي بأن هذه الخصال مركوزة في جبلية الإنسان، ولكن تختلف اختيارات كل واحد لها حسب ما تيسر له وتتأكد أسبابه، وذلك أن من الناس من تيسر له أسباب الصنائع والحرف، وآخر أسباب العلوم والآداب، وآخر تيسر له أسباب العمل والتصرف،

وآخر أسباب التجارات والبيع والشراء، وآخر أسباب الملك والسلطان، وآخر أسباب البطالة والفراغ، وآخر أسباب الحكم والمعارف — كما سنبينه بعد هذا الفصل.

ومما أعطيت النفس الناطقة من نعم الله تعالى وخصّته به من إحسانه من بين نفوس سائر الحيوانات، وأُعِينَتْ به على البلوغ إلى أقصى مدى غاياتها، وأيدت للوصول إلى تمام نهاياتها؛ هذا الهيكل العجيب البنية المحكم الصورة المتقن الصنعة، الذي قد عجزت الحكماء عن كنه معرفته وتركيب بنيته من غرائب الصنعة، مما قد وصف طرف منه في كتاب منافع الأعضاء وكتاب التشريح من كيفية انتصاب قامته من بين سائر الحيوانات، وما خص به أيضاً من فصاحة لسانه وغرائب لغاته وفنون أقاويله وحسن بيانه من بين سائرهما، وما خص به أيضاً من طريف شكل يديه، وما يتأتى له بهما من الصنائع المحكمة والأعمال المتقنة من بين سائرهما، وما خص به أيضاً من طرائف أدوات حواسه وغرائب طرق إدراكها للمحسوسات — كما وصفنا في رسالة الحاس والمحسوس.

ومما خصّته به أيضاً النفس الناطقة الإنسانية من نعم الله تعالى وإحسانه؛ العقل الغريزي وكثرة أعوانه وجنوده وخصاله المحمودة، كما سنبين بعد، وأما التي تنسب من الخصال المحمودة إلى النفس الحكيمة فشهوة العلوم والمعارف وما أُعِينَتْ به على طلبها وإدراكها والوصول إليها من الخصال المركوزة والقوى المجبولة؛ كالذهن الصافي والفهم الجيد وذكاء النفس وصفاء القلب وحدة الفؤاد، وسرعة خاطر، وقوة التخيل وجودة التصور، والفكر والروية والتأمل والاعتبار، والنظر والاستبصار والحفظ والتذكر ومعرفة الروايات والأخبار ووضع القياسات واستخراج النتائج بالمقدمات والتكهن والقيافة والفراسة وقبول الوحي والإلهام، ورؤية المنامات والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزجر. كل ذلك معاونة لها وتأييد إلى البلوغ إلى الغاية والوصول إليها، وأما التي تُنسب إلى النفس الملكية القدسية فهي شهوة القرب إلى ربها والزلفى لديه، وقبول الفيض منه وإفاضة الجود على من دونها من أبناء جنسها، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾، وقال: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ الآية، فهذا تفصيل جملته ما يُنسب إلى كل جنس من النفوس، والمخصوص بها من الشهوات المركوزة فيها، فأما التي تعمها كلها فشهوة البقاء على أتم الحالات وأكمل الغايات وكراهية الفناء والنقص عن الحال الأفضل والأكمل.

فصل

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنك إن أنعمتَ النظر فيما وصفنا وتأملت ما ذكرنا، وجودت البحث عن مبادئ الكائنات وعلّة الموجودات؛ علمتَ وتيقنتَ أن هاتين الحالتين؛ أعني: شهوة البقاء وكرهية الفناء أصلٌ وقانونٌ لجميع شهوات النفوس المركوزة في جِبِلَّتِها، وأن تلك الشهوات المركوزة في جبلتها أُصُولٌ وقوانينٌ لجميع أخلاقها وسجاياها، وتلك الأخلاقُ أُصُولٌ وقوانينٌ لجميع أفعالها وصناعاتها ومعارفها ومتصرفاتها — كما سنبين في هذه الفصول.

وإنما صارتْ هاتان الحالتان مركوزتين في جِبِلَّةِ كُلِّ الموجودات وجميع الكائنات من أجل أن الباري — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لَمَّا كان هو علّة الموجودات وسبب الكائنات ومبدعها ومخترعها وموجدتها ومبقيها ومتممها ومكملها ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها وأفضل حالاتها، وكان — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — دائم البقاء لا يعرض له شيء من الفناء؛ صار من أجل هذا في جبلة الموجودات محبة البقاء وشهوته وكرهية الفناء وبغضه؛ لأن في جبلة المعلول يوجد بعض صفات العلة دلالةً دائمةً عليها، وإنما لا يعرض للباري — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — شيءٌ من النقص والفناء من أجل أنه علّة الوجود لذاته وبقاؤه من نفسه، وأما سائرُ الموجودات وجميع الكائنات فلوجودها أسبابٌ وعلل، ومتى عدم منها شيء أو نقص عرض لها الفناء والنقص والقصور عن البلوغ إلى الحال الأفضل والوجود الأكمل، والمثال في ذلك النبات والحيوان؛ فإنه متى عدم الغذاء الذي هو هيولى الأجساد، ومادة بقائها هلك وانفسد وتغيَّر واضمحَلَّ.

وهكذا حُكِّمَ نفوسها متى بطلت هياكلها بطل شعورها وإحساسها ولم يمكنها إظهارُ أفعالها وتأثيراتها، فتكون بتلك الحال النفوس موجودة ولكن على حال النقص، كما أن تراب أجسادها يكون موجودًا لكن على حال النقص، وقد يعلم بأوائل العقول بأن الوجود على الحال الأفضل ألدُّ وأشرف وأفضل من الوجود على النقص. وقد قالت الحكماء والفلاسفة بأن كل شيء يراد فهو من أجل الخير، والخير يراد من أجل ذاته، والخير المحض السعادة، والسعادة تراد لنفسها لا لشيء آخر.

وقد قلنا وبيَّنا في رسالة الإيمان بأن السعادة نوعان دنيويةٌ وأخروية، فالسعادة الدنيوية هي أن يبقى كُلُّ موجودٍ أطول ما يمكن على أفضل حالاته وأتم غاياته، والسعادة الأخروية أن تبقى كُلُّ نفسٍ إلى أبد الآبدين على أفضل حالاتها وأتم غاياتها.

واعلم يا أخي بأن النفوس الجزئية إنما رُبِطت بأجسادها التي هي أجسامٌ جزئيةٌ كي ما تكمل فضائلها وتخرج كل ما في القوة والإمكان إلى الفعل والظهور من الفضائل والخيرات، ولم يمكن ذلك إلا بارتباطها بهذه الأجساد وتدبيراتها لها، كما أنّ الباري — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لم يكن إظهار جوده وفيض إحسانه وأفضاله وإنعامه إلا بإيجاد هذا الهيكل العظيم المبني بالحكمة، المصنوع بالقدرة، أعني: الفلك المحيط وما يحويه من سائر الأفلاك والكواكب والأركان والمولدات الكائنات وتدبيره لها وسياسته إياها. وإذ قد تبين بما ذكرنا: ما الغرض وما الفائدة من الشهوات المركوزة في الجبلية، وما يتبعها من الأخلاق والخصال، وهي أن تدعو تلك الشهوات النفوس إلى طلب المنفعة لأجسادها ودفع المكروه والمضرة عنها وتعينها تلك الأخلاق والخصال عليها؛ فنريد أن نبين الآن ما الخير منها، وما الشر وما المذموم منها، وما المحمود، ومتى يكون الإنسان مثابًا بها أو معاقبًا؟

(٩) فصل في ترتب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الإنسان لما كان جسده مركبًا من الأخلاط الأربعة، وكان مزاجه من الطبائع الأربع جعل الباري — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بواجب الحكمة أكثر أموره وتصاريف أحواله مربعات مشاكلات مطابقات بعضها لبعض؛ ليكون أعون له على ما يراد منه وأدل، من ذلك أنك تجد أخلاقه وأفعاله بعضها طبيعية مركوزة في الجبلية، كما ذكرنا طرفًا من ذلك، وبعضها نفسانية اختيارية، وبعضها عقلية فكرية، وبعضها ناموسية سياسية.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الطبيعة هي خادمة للنفس ومقدمة لها، وأن النفس خادمة للعقل ومقدمة له، وأن العقل خادم للناموس ومقدمة له؛ وذلك أن الطبيعة إذا أصلت خلقت وركزت في الجبلية جاءت النفس بالاختيار فأظهرته وبينته، ثم جاء العقل بالفكر والروية فتَمَمَّه وكمله ثم جاء الناموس بالأمر والنهي فسَوَّاه وقَوَّمه وعدله.

وذلك أنه متى ظهرت من الطبيعة هذه الشهوات المركوزة في الجبلية، وكانت على ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، من أجل ما ينبغي؛ سميت خيرًا. ومتى كانت بخلافه سميت شرًا، ومتى فعل ذلك باختياره وإرادته على ما ينبغي بمقدار ما ينبغي من أجل ما ينبغي؛ كان صاحبه محمودًا، ومتى كان بخلافه كان مذمومًا، ومتى كان اختياره وإرادته

بفكر وروية على ما وصفنا كان صاحبه حكيماً فيلسوفاً فاضلاً، ومتى كان بخلافه سمي سفيهاً جاهلاً رذلاً.

ومتى كان فعله وإرادته واختياره وفكره ورويته مأموراً بها ومنهياً عنها وفعل ما ينبغي كما ينبغي على ما ينبغي كان صاحبه مثاباً بها ومجازى عليها، ومتى كان بخلاف ما ذكرناه كان مأخوذاً بها ومعاقباً عليها، فقد تبين بما ذكرنا أن الشهوات المركوزة في الجبلة والأخلاق المنتشئة منها والأفعال التابعة لها وجميع المتصرفات من أجلها هي لأن تبقى النفوس على أفضل حالاتها، ويبلغ كل نوع منها إلى أقصى مدى غاياتها.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الباربي — جَلَّ ثناؤه — لَمَّا رَتَّبَ النفوس مراتبها كمراتب الأعداد المفردات على ما اقتضت حكمتها؛ جعل أولها متصللاً بآخرها، وآخرها متصللاً بأولها، بوسائطها المرتبة بينهما؛ لترتقي بها ما دونها إلى المرتبة التي فوقها؛ ليلبغها إلى مدى غاياتها، وتتمام نهاياتها، وذلك أنه رتب النفوس النباتية تحت الحيوانية وجعلها خادمة لها ورتب الحيوانية تحت الناطقة الإنسانية وجعلها خادمة لها، ورتب الناطقة الإنسانية تحت العاقلة الحكيمة وجعلها خادمة لها، ورتب العاقلة تحت الناموسية وجعلها خادمة لها، ورتب الناموسية تحت الملكية وجعلها خادمة لها.

فأية نفس منها انقادت لرئيسها وامتثلت أمره في سياستها؛ نُقلت إلى مرتبة رئيسها، وصارت مثلها في الفعل، والمثال في ذلك من المشاهد أن أي تلميذ أو متعلم في علم أو صناعة امتثل أمر أستاذه وانقاد لمعلمه ودام عليه، فإنه سيصير يوماً ما إلى مرتبة أستاذه ويصير مثل معلمه؛ لا يخفى هذا على كل عاقل متأمل مثل ما وصفنا، فعلى هذا المثال يكون تنقلُ النفوس في مراتبها.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن أحق النفوس الحيوانية أن تنتقل إلى رتبة الإنسانية التي هي الخادمة للإنسان، المستأنسة به، المنقادة لأمره، المتعوبة في طاعته، الشقية في خدمته، وخاصة المذبوحة منها في القرابين، وعلى هذا المثال والقياس حكمُ النفوس الإنسانية؛ فإن أحقها أن تنتقل إلى رتبة الملائكة التي هي الخادمة في أوامر الناموس ونواهيها، المنقادة لأحكامها، المتعوبة في حفظ أركانه، كما سنبين بعد هذا الفصل.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الناس أصنافٌ وطبقاتٌ في متصرفاتهم في أمور الدنيا لا يحصي عددها إلا الله — جَلَّ ثناؤه — كما ذكر بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، ولكن يجمعهم كلهم هذه السبعة الأقسام؛ وذلك أن منهم أربابُ الصنائع والحرف والأعمال، ومنهم أرباب التجارات والمعاملات والأموال، ومنهم أرباب

البنائيات والعمارات والأملك، ومنهم الملوك والسلاطين والأجنادُ وأرباب السياسات، ومنهم المتصرفون والخدامون والمتعيشون يوماً بيوم، ومنهم الزمّنى والعطل وأهل البطالة والفراغ، ومنهم أهل العلم والدين والمستخدمون في الناموس، وكل طائفة من هذه السبعة تنقسمُ إلى أصناف كثيرة، ولكل صنف منها أخلاقٌ وطباعٌ وسجايا ومآربٌ، أكسبتهم إياها أعمالهم، وأوجبتهَا لهم متصرفاتهم، لا يشبه بعضها بعضاً، ولا يحصي عددها إلا الله — عز وجل.

ولكن نريد أن نذكر منها ما يحتاج إليه من الأخلاق والسجايا والخصال والأعمال والآداب والعلوم؛ أهل الدين المتمسكون بأحكام الناموس الحافظون أركانها الذين يُرَجَى لَهُمُ النجاةُ بها والفوز باستعمالها، كما ذكر الله — جل ثناؤه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، وقوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغْفَارٍ لَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ إلى آخر الآية، وآيات كثيرة من القرآن في مثل هذه المعاني.

(١٠) فصل في مراتب الناس في الأخلاق حسب الأعمال

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الناس إذا اعتبرت أحوالهم وتبينت أمورهم وجدتهم كلهم كالآلات والأدوات لواضعي النواميس الإلهية في تأسيسهم بنياتهم، وتتميمهم أحكامها وتكميلهم شرائطها وحفظهم أركانهم، ثم تجدهم خدماً وخولاً للملوك الذين هم خلفاء الأنبياء من بعدهم في حفظها وحرصاتها على نظامها وترتيبها، كما رتبها واضعو النواميس وأمروا بمراعاتها، وهم في ذلك أصنافٌ وطبقاتٌ ومراتبٌ مرتبات كترتيب الأعداد المفردات؛ وذلك أن واضع الناموس في مبدئه كالواحد في العدد، وأصحابه وأنصاره الذين اتبعوه كالآحاد، ومن تبعهم على مناهجهم كالعشرات، ومن جاء من بعدهم كالمئات، ومن بعدهم كالألوف، ومن جاء من بعدهم كعشرات الألوف ومئات الألوف بالغاً ما بلغ إلى يوم القيامة.

ثم يصيرون بذلك كلهم جملة واحدة، كما ذكر الله — جل ثناؤه — بقوله وأشار إلى هذا المعنى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ وقال: ﴿وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ * وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنك إذا أنعمت النظر في الأمور المعقولة وجوّدت التأمل لأحكام الناموس وحدوده واعتبرت أحوال صاحب الناموس ونفاذ أمره

ونهيه في نفوس أتباعه وأنصاره، وامتنالهم أمره ونهيهِ وطاعتهم له؛ تبيّنت وعرفت بأن الناموس مملّكةٌ روحانيّةٌ، وأن وجوده وقوامه في حفظ أركانه الثمانية، وتبيّنت بأن أركانه الذين هم أتباعُ صاحب الناموس وأنصاره، وهم ثمانيةٌ أصناف؛ كل صنف منهم كأنهم صفٌّ قيام، حاملون ركنًا من أركان الناموس.

فأولُ الأصناف هم قراءةٌ تنزيله وكتبه وحُفَاطُ أفاظه على رسومها ومعلموها لِمَنْ بعدهم من ذراريهم؛ ليؤدوا إلى من بعدهم من أتباعهم ما أخذوا عنم قبلهم؛ كل ذلك لكي لا يجهلها مَنْ يجيء من بعدهم وتنسى فتندرس معالم الدين وتضمحل وتبطل أحكام الناموس، والصنف الثاني هم رُواةُ أخبارِهِ وناقلو أحاديثه وحافظو سيره ومؤدوها إلى من بعدهم؛ ليلبغوها إلى آخرهم كي لا يجهل وينسى فتندرس آثارُهُ وتموت أخباره فلا تعرف.

والصنف الثالث هم فقهاء أحكام الناموس وعلماءُ سننه وحُفَاطُ حدوده؛ كي لا تجهل فلا تستعمل أو تنسى فتندرس معالم الدين وتضمحل ويبطل الناموس، والصنفُ الرابع هم المفسرون أفاظ تنزيله الظاهرة وأقاويله الروية والمعبرون عن وجوه معانيه المختلفة لمن قصر فهمه عنها وقلّت معرفتُهُ بها؛ كل ذلك كي لا يجهلها مَنْ يجيء مَنْ بَعْدَهُم من ذراريهم وأتباعهم في أحكام الناموس أو تُنسى فتندرس معالمُ الدين وتضمحل وتبطل أحكام الناموس.

والصنفُ الخامسُ هم أنصارُهُ المجاهدون وغُزاةُ أعدائه، الحافظون ثغور بلاد أتباع صاحب الناموس وأنصاره؛ كي لا يغلب عليها أعداؤهم ويفسد أمر دينهم عليهم، كما فعل بخت نصرَ بإيلياء في هيكل بني إسرائيل، وهو ببيت المقدس، وكما فعلت الروم بثغور المسلمين.

والصنف السادس هم خلفاءُ صاحب الناموس في أمّته ورؤساء الجماعات والحارسون شريعته على أمته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المانعون لهم أن يسيروا بغير سيرة الناموس، الحافظون أطراف المملكة؛ كي لا يخرج خارجيٌّ سرًّا أو علانية، فيفسد أحكام الناموس بتمويهه وزوره على قلوب العامة والجهال كما فعل مزدك الخرمي في مملكة قباد ملك الفرس.

والصنف السابعُ همُ الزهادُ والعبادُ في المساجد، والرهبان والقوّم في الهياكل، والخطباء على المنابر الواعظون الناس المحذرون لهم من ترك استعمال أحكام الناموس، الذامون أمُور الدنيا، المحذرون لهم من الاغترار بأمانيتها، المزهدون للمنهمكين في الشهوات، المذكرون أمر المعاد وأحوال القيامة للغافلين عنها، المشوقون إلى نعيم الآخرة المقرون بها.

كل ذلك كي لا يجهل أمر المعاد ولا يُنسى ذِكْرُ الآخرة والاستعداد للرحلة إليها والتزوّد من الدنيا التقوى الذي هو خير الزاد؛ إذ كان هذا هو الغرض الأقصى في وضع الناموس الإلهي والغاية والمطلب من الرياضيات الفلسفية.

والصنفُ الثامنُ هم علماء تأويل تنزيهه والراسخون في العلوم الإلهية والمعارف الربانية، العارفون حَفِيَّاتِ أسرار الناموس الذين هم الأئمّة المهديون والخلفاء الراشدون، الذين يقضون بالحق وبه يعدلون.

فصل

واعلم يا أخي بأنك إذا تأملتَ ونظرتَ إلى كل صنف من هذه الأصناف الثمانية واعتبرتَ أحوالهم وما هم عليه ومتعلقون به مِنْ حِفْظِ هذه الأمور الثمانية وحرصهم على مراعاتها بشرائطها كما وصفنا، ثم نظرت بعين قلبك ونور بصيرتك وصفاء جوهرك إلى جملتهم وتخليلتها في وهمك وفكرت؛ رأيت الناموس مملكة روحانية ورأيت أتباع صاحب الناموس وأنصاره يسعون فيه ويعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل، ورأيت واضع الناموس قد استوى على عرشه نافذًا فيهم أمره ونهيه، وهم حاملون عرشه يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون لمن في الأرض، وهم من بعدهم من أتباعهم؛ لأنهم كالسما لمن بعدهم، ومن بعدهم كالأرض لهم، ولن قبلهم من أسلافهم.

واعلم يا أخي بأن كل طائفةٍ من هذه الأصناف الثمانية تحتاج في حفظها ركنًا من أركان الناموس إلى شرائط معلومة وخصال محمودة وأخلاق جميلة؛ نحتاج أن نشرحها ونصفها: أما التي يحتاج إليها القراء والحفظة مِنَ الأخلاق الجميلة والخصال المحمودة والشرائط المعلومة، فأولها فصاحة الألفاظ وتقويم اللسان وطيب النغمة وجودة العبارة وسرعة الحفظ وجودة الفهم ودوام الدرس والنشاط في القراءة والتواضع لمن يتعلم منه والتعظيم له ومعرفة حقه وحرمة الرفق بمن يعلمه والشفقة عليه وقلة الضجر من إبطاء فهمه وحفظه وترك ضيقِ الصدرِ مِنْ تلقينه وقلة الطمع في أخذ العوض منه وقلة المنة عليه بما يعلمه.

وأما التي يحتاج إليها من هذه الخصال والأخلاق أصحاب الأخبار وحملة الأحاديث، فأولها جودة الاستماع واستيفاء الكلام وضبط الألفاظ على رسمها وتقييدها بالكتابة والتحرُّز والتحرُّج والحدْر من الزيادة فيها والنقصان عن تمامها والصدق وحسن الأداء وتجنُّب الكذب ثم الحكاية عنها بهيئتها وبذاتها ونشرها لمن سأل عنها أو يصلح له الإخبار

عنها، وطبيها وصولاً عمن لا تصلح له ولا تليق به؛ كل ذلك نصيحة للإخوان ونصرة للدين ولواضع الناموس وابتغاء وجه الله وجزيل ثوابه في الآخرة. وأما التي يحتاج إليها الفقهاء والقضاة والمفتون من هذه الخصال والأخلاق والشرائط المحمودة فيها والقيام منها بما هم بسبيله، فأولها: معرفة الرتب التي رتَّبها واضعُ الناموس من الأوامر والنواهي والفرائض والسنن والنوافل والحلال والحرام والحدود والأحكام.

ثم معرفة القياس وكيفية استخراج الفروع من الأصول في الفتاوى والمسائل الواردة التي ليس لها ذكرٌ في الأصول، والتثبت والتأني في الفتيا والاستقصاء في استفهام السؤال بجميع شرائطه، ثم قلة الترخيص في الشبهات من المحذورات وترك التحريج في المشكلات ودَرْء الحدود بالشبهات وقلة الخلاف مع أبناء الجنس وترك الحسد للأقران وبذل النصيحة للإخوان والشفقة والتحنن على الجهال، وترك الافتخار في الإصابة في الأحكام، وقلة الشنعة على العلماء بزلاتهم، والاحتمال لأذية الجيران، وقلة الرغبة في حطام الدنيا، وعفة الفرج وترك الطمع والقيام بواجب أحكام الناموس، وأن لا يكون قوله مخالفاً لعمله.

وأما التي يحتاج إليها من هذه الخصال والأخلاق والشرائط المفسرون لألفاظ التنزيل، فأولها معرفة غرض صاحب الناموس في إيراد التنزيل واستعماله الألفاظ المشتركة المعاني، ثم أن يكون له اتساعٌ في معرفة تصاريح الكلام والأقاويل، وما يحتملها من المعاني مما يؤكد غرض واضع الناموس، ويكون له جودة بحث وبعد غور في استخراج المعاني ولطف العبارة عنها بحسب ما تحتمل عقول المستمعين، ويقرب من فهم المتعلمين، ويكون له من يقظة القلب ما لا يناقض أقاويله وعباراته ولا في المعاني التي يشير إليها في تفسيره لألفاظ تنزيل واضع الناموس وأقاويله وكلامه وبيانه.

واعلم يا أخي بأنه متى لم يكن المفسرُ عارفاً بغرض واضع الناموس في إيراد الألفاظ المشتركة المعاني في تنزيهه وأقاويله وعباراته وبيانه، تخيل له من تلك الألفاظ من المعاني غير ما أشار إليه واضع الناموس، وتوهم سوى ما أراد فيها، فأفهم المستمعين من تفسيره ما تخيل هو، وعلم المتعلمين ما علم به، فصار له ذلك ديناً ومذهباً غير دين واضع الناموس وطريقته، وكان مخالفاً له في اعتقاده في الشريعة وهو لا يشعر، ويكون بذلك مفسداً في أحكام الناموس، وهو يظن أنه من المصلحين ولا يدري، فاحذر يا أخي من هذا الباب؛ فإن فساد ديانات واضعي الناموس وأحكام شرائعهم أكثرها من هذا الباب يكون.

وأما التي يحتاج إليها من هذه الخصال والأخلاق والشرائط أنصار واضع الناموس وغازاة أعدائه والحافظون ثغور بلاد أتباعه وأنصاره أن يكون لهم تعصبٌ للدين وغيرةٌ على حُرْمَةِ الناموس، وحمية من أجل فساد يدخل عليه، وحنق على الأعداء المجاهرين بالعداوة لواضع الناموس ودينه، المريدين فساد أحكامه وقلة الهيبة منهم، وشجاعة النفس عند البراز، وخفة الحركة عند الجولان، وتيقظ القلب من غدر العدو، وأخذ الحذر في أوقات الغفلة وقلة الاغترار بقلتهم وطلب الحيلة للظفر ما استوى من غير قتال، ومخادعة في الحروب، ومبادرة في البراز إلى الأقران والأكفاء وصبر عند اللقاء، وكثرة الذكر لله — عز وجل — والاستعانة به، والأنفة من الفرار وما يكون فيه من العار، وقلة الرغبة في النهب، والتقية من هتك الحريم عند الظفر، وكثرة الشكر لله، وترك الإفساد عند هزيمة العدو، ورحمة الأسير، وقبول الصلح عند الهدنة، والوفاء بالعهد، وترك الإعجاب عند كثرة عدَد الأعداء والأنصار.

وأما التي يحتاج إليها من هذه الخصال والأخلاق والشرائط الزهاد والعباد والمذكرون للناس أمر الآخرة وذكر المعاد؛ فأولها التي هي أساسُ الدين وملاك الأمر القناعة باليسير من حطام الدنيا، والرضا بالقليل من متاعها ولذاتها، وصيانة النفس عن الانهماك في شهواتها ولذاتها، وترك طلب المنزلة والجلالة والكرامة، وقلة الحرص في طلب الحاجات فيها، والاشتغال بطلب العلم، والعبادة بالصوم والصلاة مع أبناء الجنس، وترك الخلطة في الراغبين فيها من أبنائها، والتفرد في الخلوات، وكثرة ذكر الموت وفناء نعيم الدنيا وزوال ملكها، والنظر إلى آثار القرون الماضية، والاعتبار بها، والدور الخربة والمنازل الدارسة العافية للأمم الخالية، والنظر في كتب الحكماء وأخبار سير الملوك الماضية، والتفكر في الأمثال المضروبة على ألسنة الحكماء ذوي التجربة في وصفهم الدنيا واعتبارهم تصاريف الزمان ونوائب الحدثنان، والتيقن بأمر المعاد، وشدة الاشتياق إلى نعيم الآخرة دار القرار مع الأبرار من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحَسَنَ أولئك رفيقًا.

وأما التي يحتاج إليها من هذه الخصال والأخلاق والشرائط خلفاء واضع الناموس، وهم طائفتان؛ إحداهما خلفاؤه في الملك والرياسة في أمور الدنيا والتدبير والسياسة في حفظ ظاهر أحكام الناموس على أهله؛ فقد أفردنا له رسالة؛ إذ كان هذا الباب يحتاج إلى خطب طويل وشرح كثير.

وأما خلفاؤه في أسرار أحكام الناموس الذين هم الأئمة المهديون والخلفاء الراشدون؛ فقد بيّننا أخلاقهم وخصالهم وشرائطهم وعلومهم ومعارفهم وطرائقهم في إحدى وخمسين

رسالة عملناها ودَوَّنَها، وهذه الرسالة واحدة منها. فقمُ أيها الأخ البارُّ الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، بالعمل بواجبها والقيام بحقها، وأخبرُ جميع إخواننا حيث كانوا في البلاد بما في هذه الرسالة والرسائل الأخرى؛ إذ الدالُّ على الخير كفاعله.

وقد بيَّنا بما ذكرنا طرقاً من خصال صاحب الناموس وحكم أتباعه معه في حفظهم أركان الناموس وتصاريف أحوالهم في الدنيا، فنريد أن نذكر طرقاً من كيفية أحوالهم في الآخرة وتصاريف أحكامها؛ إذ كان هذا هو الغرضُ الأقصى في وَضْعِ النواميس الإلهية وسنن الديانات النبوية.

فاعلم يا أخي بأن لكل شيءٍ من الموجودات في هذا العالم ظاهراً وباطناً، وظواهر الأمور قشوراً وعظام، وبواطنها لب ومخ، وأن الناموس هو أحد الأشياء الموجودة في هذا العالم منذ كان الناس، وله أحكامٌ وحدودٌ ظاهرةٌ بينةٌ، يعلمها أهل الشريعة وعلماء أحكامها من الخاص والعام، ولأحكامه وحدوده أسرارٌ وبواطنٌ لا يعرفها إلا الخواص منهم، والراسخون في العلم.

واعلم يا أخي بأن الناموس وُضِعَ لصلاح الدين والدنيا جميعاً، وأن الدنيا والآخرة هما داران متقابلتان واسماهما مضادان، ومعناهما وحقيقتهما وصفتهما مختلفات متضادات؛ إحداهما كالقشرة وهي الدنيا، والأخرى كالب لب وهي الآخرة، ولهما أهلٌ وبنون ولأهلها وبنينها صفاتٌ وأخلاقٌ وسجايا وأعمالٌ متخالفات متضادات؛ نحتاج أن نشرحها ونفصلها ونذكر الفرق بينها وبين حقيقتها، ونميز بين أهلها؛ ليعلمها ويعرفها كل من أراد أن يفهم ويريد هذا العلم؛ إذ كان هو من أشرف العلوم وأجل المعارف التي يتعاطاها الناس من سائر العلوم.

فنقول: أما الدنيا فاسمُها مشتقٌّ من الدنو والقرب، والآخرة من التأخر، وأما حقيقتُهما فالدنيا هي تصاريفُ أمورٍ تجري على الإنسان من يوم ولادة الجسد إلى يوم الممات الذي هو ولادة النفس ومفارقتها إياه، والآخرة هي تصاريفُ أمورٍ تجري على الإنسان من يوم الممات ومفارقة النفس الجسد إلى ما بعدها أبد الأبدين ودهر الداهرين. واعلم يا أخي بأن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — سَمَى الحياة الدنيا عرضاً ومَتاعاً إلى حين؛ لأنَّ كون الإنسان في الدنيا عارض عرض في طريق الآخرة، ولم يكن القصد والغرض المقام فيها، كما أن الغرض في الكون في الرحم لم يكن الغرض والقصد طول المكث والمقام هناك، ولكنَّ طريقاً وجوازاً إلى الدنيا، فكذلك كونُ النفس في هذا الجسد هو سفينة ومركوب ومعبر إلى الدار الآخرة، وذلك أنه لم يكن الوردُ إلى الدنيا دون الكون هناك

زماناً لتتميم بنية الجسد، وتكميل صورته كما بيَّننا في رسالة مسقط النطفة، فهكذا أيضاً حكم المكث في الدنيا والكون فيها زماناً هو طريق وجواز إلى ما بعدها؛ وذلك أنه لم يكن الورود إلى الدار الآخرة دون الجواز على الدنيا والكون فيها زماناً ما لكي ما تتم أحوال النفس، وتكمل فضائلها، كما بيَّننا في رسالة الإنسان عالم صغير، ورسالة حكمة الموت.

ولهذا المعنى الذي ذكرناه ووصفناه قيل في الخطب على المنابر في الأعياد والجمعات: اعلموا أيها الناس أنكم إنما خلقتُم للأبد، ولكن من دار إلى دار تنتقلون، ومن الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الجنة أو إلى النار، كما ذكر الله — عز وجل — بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ وآيات كثيرة في القرآن في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني أبناء الدنيا لربغبوا فيها أكثر وحرصوا في طلبها أشد، ولكنهم عنها غافلون ساهون جاهلون، لا يدرون ما هناك من النعيم واللذات والسرور والفرح والراحة، كما ذكر الله — عز وجل — واختصر بقوله: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فلما جهل أبناء الدنيا أمور الآخرة، وغفلوا عنها اشتغلوا عند ذلك بطلب الدنيا ونعيمها ولذاتها وشهواتها، وتمنوا الخلود فيها؛ لأنها محسوسة لهم يشهدونها، وتلك غائبة عن إدراك الحواس، فتركوا البحث عنها، والرغبة فيها والطلب لها وإليهم أشار بقوله — جل ثناؤه: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾. واعلم يا أخي بأن الله — جل ثناؤه — سمى الدار الآخرة الحيوان؛ لأنها عالم الأرواح ومعدن النفوس، والدنيا عالم الأجسام، وجواهر الأجسام موات بطبائعها، وإنما تكسبها الحياة النفوس والأرواح بكونها فيها ومعها، كما تكسب الشمس الهواء النور والضيء بإشراقها عليه، وفيه الدليل على أن النفوس هي التي تكسب الأجساد الحياة بكونها معها، وما يرى من حال الأجساد قبل الموت من الحس والحركة والشعور والأصوات والتصاريح وكيفية فقدانها ذلك عند الموت الذي ليس هو شيئاً سوى مفارقة النفس الجسد، مما لا خفاء به عند كل عاقل منصف بعقله في موجبات أحكامه.

واعلم يا أخي بأن أكثر الناس من أتباع واضعي الناموس وأنصارهم مقرُّون بالآخرة مؤمنون بها، ولكنهم لا يعرفون ماهيتها، ولا يدرون ما حقيقتها ولا كقيقتها ولا أبنيتها

ولا متى وقت الوصول إليها، وهكذا أيضًا كثيرٌ من المتفلسفين مُقَرَّبُونَ بعالم الأرواح وجواهر النفوس، ولكن أكثرهم أيضًا لا يدرون كيف الطريق نحوها ولا كيف الوصول. وقد بيَّنَّا نحنُ في رسائلنا الناموسية والعقلية ما يحتاج إليه كِلَا الفريقين جميعًا في هذا المعنى؛ وإن قد تبين بما ذكرنا ما الدنيا وما الآخرة، فنقول الآن: إن الناس كلهم أبناء الآخرة وأهلها كما هم أبناء الدنيا وأهلها، ولكنهم ينقسمون في الآخرة قسمين اثنين، كما هم في الدنيا قسمان اثنان: سعداء وأشقياء، فأما سعداءُ بني الدنيا وأشقياءُ وهم فهم معروفون ولسنا نحتاج إلى ذِكْرِهِمْ؛ إذ كان هذا هو مشاهد، ولكن الذي نحتاج أن نذكره علامات سعداء أبناء الآخرة وأخلاقهم وأعمالهم؛ إذ كان هذا أمرًا خفيًا لا يعلم إلا بعد الوصف والشرح والدليل والعلامات.

(١١) فصل في انقسام الناس في السعادة أربعة أقسام

اعلم يا أخي أن الناس ينقسمون في سعادة الدنيا والآخرة وشقائهما أربعة أقسام، فمنهم سعداء في الدنيا والآخرة جميعًا، ومنهم أشقياء فيهما جميعًا، ومنهم أشقياء في الدنيا سعداء في الآخرة، ومنهم سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة. فأما السعداءُ في الدنيا والآخرة جميعًا فهم الذين وفر حظهم في الدنيا من المال والمتاع والصحة، ومكنوا فيها فاقتصروا منها على البلغة، ورضوا بالقليل، وقنعوا به، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرةً لأنفسهم، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقال الله سبحانه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى.

وأما سعداء أبناء الدنيا وأشقياء أبناء الآخرة فهم الذين وفر حظهم من متاعها ومكنوا منها وارتقوا فيها فتمتعوا وتلذذوا وتفاخروا وتكاثروا، ولم يتعظوا بزواجر الناموس، ولم ينقادوا له، ولم يأتَمروا لأمره، وتعدوا حدوده، وتجاوزوا المقدار، وطغوا وبلغوا وأسرفوا، والله لا يحب المرففين، وهم الذين أشار إليهم بقوله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ إلى آخر الآية، وقال: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾، وآيات كثيرة في القرآن في وصف هؤلاء.

وأما أشقياء الدنيا وسعداء الآخرة فهم الذين طالت أعمارهم فيها، وكثرت مصائبهم في تصاريف أيامها، واشتدت عنايتهم في طلبها، وفنيت أبدانهم في خدمة أهلها، وكثرت همومهم من أجلها، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها، واثتمروا بأوامر الناموس، ولم

يَعْدُوا حُدُودَهُ، وقد ذكر الله ذلك في آيات كثيرة من القرآن: ﴿إِنَّمَا يُؤْنِقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأما أشقياء الدنيا والآخرة فهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا، ولم يمكننا منها، وشقوا في طلبها، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان متعوية ونفوس مهمومة، ولم ينالوا خيراً، ثم لم يأتروا بأوامر الناموس، ولم ينفقوا لأحكامه، وتجاوزوا حدوده، ولم يتعظوا بزواجه، ولم يعملوا في عمارة بنيانه ولا في حفظ أركانه، فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، ذلك هو الخسران المبين.

فصل

وإذ قد تبين بما ذكرنا بأقسام عقلية أنه لا يخلو أحد من الناس من أن يكون داخلاً في أحد تلك الأقسام الأربعة، فنريد أن نذكر أخلاق أبناء الدنيا وطباعهم، وأخلاق أبناء الآخرة وسجاياهم؛ ليعرف الفرق بينهم.

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن أخلاق بني الدنيا هي التي ركزتها الطبيعة في الجبلية من غير كسبٍ منهم ولا اختيار ولا فكرة ولا روية ولا اجتهاد ولا كلفة، فهم يسعون فيها ويعملون عليها مثل البهائم في طلب منافع الأجساد ودفح المضرة عنها، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، وأما أخلاق أبناء الآخرة فهي التي اكتسبوها باجتهادهم، إما بموجب العقل والفكر والرؤية، وإما باتباع أوامر الناموس وتأديبه، كما سنبين، وتصير عند ذلك عادة لهم بطول الدعوب فيها، وكثرة الاستعمال لها، وعليها يجازون ويثابون، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنك إذا أنعمت النظر بعقلك، وفكرت برويتك، وتاملت أوامر الناموس ونواهيته وأحكامه وحدوده وترغيبه وترهيبه ووعده وعيده وزجره وتهديده؛ عرفت وتبينت أن أكثر أوامره هي بخلاف ما في طباع الناس، ونواهيته عما هو في الجبلية مركزاً من تركُّب الشهوات أو طلب الراحة والنعيم والتلذذ، وما هو مركز في الجبلية.

وذلك أنه أمر بالصيام وترك الأكل والشرب عند شدة الجوع والعطش، وبالطهارة عند البرد، وبالقيام في الصلاة وترك النوم على الفراش الوطيء، وبالمواساة عند القلة وشدة

الحاجة، وبالتعفف عند هيجان الشهوة، وبالحم عند سورة الغضب، وبالشجاعة عند المخاوف، وبالعفو عند المقدرة، وبالعدل عند الحكومة، وبالصبر عند الشدائد، وبالرضا عند مُرِّ المقادير، وبحسن العزاء عند المصائب، وبالاجتهاد والتشمير عند الكسل، وبصدق القول عند شدة الخوف منه، وبالسخاء عند شدة الفقر، وبوفاء العهد عند المغيب، وبالزهد في الدنيا عند التمكن منها، وما شاكل هذه الأفعال والأعمال والأخلاق والسجايا التي في الجبله خلأفها وفي الطباع مركزُ غيرها، ويروى في الخبر أنه سُئل رسول الله — صلى الله عليه وآله — عن معنى قول الله — عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، فقال: جمع في هذه الآية مكارم الأخلاق، وهي سبعة: عفوُك عن ظلمك، وإعطاؤك من حرمك، وصلتك لمن قطعك، وإحسانك إلى من أساء إليك، ونصيحتك لمن غشك، واستغفارك لمن اغتابك، وحلمك عن أغضبك.

واعلم يا أخي بأن هذه هي أمهات أخلاق الكرام من أولياء الله الذين أشار إليهم بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وهي أخلاق الملائكة الذين أشار إليهم بقوله — جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية، انظر الآن يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، إلى ما ذكرناه من أخلاق الكرام، وتفكر فيها إن كنت تريد أن تكون من أولياء الله وأهل جنته، ومن حزب ملائكته الكرام البررة، فاقتد بهم، وتخلّق بأخلاقهم باجتهادٍ منك وروية وعناية شديدة وكثرة استعمال لها وطول دربة بها؛ لتصير لك عادةً وطبيعةً وجبلهً مركززة، وتبقى في نفسك مصورة عند المفارقة، ودع أخلاق إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين.

واعلم علمًا يقينًا بأن ليس يصحب الإنسان بعد الموت عند مفارقة النفس الجسد، ويبقى معه من كل ما يملك في الدنيا من المال والأهل والمتاع، إلا ما كسبت يده من هذه الأخلاق والأعمال المشاكلة لها، والعلوم والمعارف والآراء التي اعتقدها وأضرمرها، كما قال رسول الله ﷺ: إنما هي أعمالكم ترد إليكم، وقال الله — جل ثناؤه: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

واعلم يا أخي بأن أخلاق بني الدنيا وسجاياهم إنما جعلت طبيعةً مركززةً في الجبله؛ لأنهم وردوا إلى الدنيا جاهلين غير مستعدين لها، فأزيحت عليهم في ذلك، فأما أبناء الآخرة فصارت أخلاقهم مكتسبةً معتادة؛ لأنهم أزيحت عليهم قبل ورودهم إلى الآخرة بما أعلموا بها، وأخبروا عنها، وبشروا بها، وأنذروا منها، وجدوا في طلبها.

وأوضح لهم طريقها، وأزاحت عنهم فيما يحتاجون إليه من البيان والاستطاعة والقدرة والهداية والأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب وما شاكل ذلك مما هو بين واضح في أحكام النواميس وحدودها، وفي موجبات العقول وقضاياها؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والعقول المركوزة.

وإذ قد تبين بما ذكرنا ما العلّة وما السبب في كَوْن أخلاق أبناء الدنيا مركوزة في الجبلية، وأخلاق أبناء الآخرة مكتسبة معتادة؛ فنريد أن نبين أن من الأخلاق المكتسبة ما هي مذمومة وما هي محمودة، وأن الحمودة منها ما هي بموجب العقل وقضاياها، ومنها ما هي بموجب أحكام الناموس وأوامره، وهكذا حُكْم المذمومة منها.

واعلم يا أخي بأن كل عاقل ذكي القلب إذا نظر بعقله وتفكر برويته في أحوال الناس، وميز بين طبقاتهم، واعتبر تصاريح أمورهم في دنياهم؛ عرف، وتبين له بأن منهم خاصاً وعمماً وملوكاً وسوقة، ويعلم ويتبين له بأن أخلاق الملوك وسجاياهم وآداب أتباعهم ومن يصحبهم وينادهم خلاف أخلاق العامة والسوقة، ويعلم بأنه لا يترك أحد من العامة والسوقة أن يدخل إلى مجالس الملوك إلا بعد أدب وعلم وسكون ووقار وهيبة وجلالة، فيكون في هذا دلالة له.

فيعلم أنه لا يمكن أحدًا من الناس، ولا يليق به، ولا يثق أن يصعد إلى ملكوت السماوات وسعة الأفلاك والدخول في زمرة الملائكة إلا بعد عناية شديدة في تهذيب نفسه وإصلاح أخلاقه وصحة اعتقاده وحقيقة معلوماته، فيجتهد عند ذلك في إصلاح ما هو فاسدٌ منها، ويتجنب ما هو مذموم بحسب ما توجهه قضية عقله، ويؤدي إليه اجتهاده كما هو مذكورٌ في كتب السياسة الفلسفية.

واعلم يا أخي أنه لما لم يكن في مكنة كل عاقل أن يفعل ما وصفنا؛ إذ كان يحتاج فيه إلى عناية شديدة، وبحث دقيق، ونظر قوي؛ حَفَفَ الله تعالى ذلك عليهم، وبعث واضعي النواميس الإلهية مؤيدين مع الوصايا المرضية، وأمرهم بامتثال أمرهم ونهيتهم، فبنوا لهم الهياكل والمساجد والبيع ومواضع الصلوات وبيوت العبادات، وأمروهم بالدخول إليها بعد طهارة ونظافة ولبس الزينة بسكينة ووقار وأدب وورع وخشوع وتسبيح واستغفار، وترك أشياء كانت مباحة لهم وجائزاً أن يفعلوها في بيوتهم وأسواقهم ومجالسهم وطرفاتهم؛ كل ذلك ليكون دلالة لكل عاقل فهم أنه هكذا ينبغي أن تكون سيرة من يريد أن يدخل الجنة، ويعرج بروحه إلى ملكوت السماوات طول عمره وأيام حياته كلها؛ لتصير عادة له وجبلة وطبيعة ثابتة، فيستحق ويستاهل أن يعرج بروحه إلى

هناك كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني روح المؤمن.

فإذا تفكر كل عاقل فيما يسمع من الخطب على المنابر في كل الديانات والملل في الأعياد والجمعات، تبين له حقيقة ما قلنا وصحة ما وصفنا.

واعلم يا أخي أن لواضعي النواميس وصايا كثيرة مفننة؛ لأن دعوتهم عموم للخاص والعام جميعاً؛ وهم — أعني أتباعهم — مختلفو الأحوال، فبينوا لكل طبقة ما ينبغي ويصلح لها، ولكن الذي عمهم كلهم هي الدعوة إلى الإقرار بما جاءوا به، والتصديق لهم بما خبروا عنه من الأمور الغائبة، علم ذلك أتباعهم أو لم يعلموا.

هذا هو الإيمان كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ فآمنوا بالله ورسوله، ثم أمرهم بعد هذا بأشياء ونهاهم عن أشياء كثيرة هي معروفة معلومة عند علماء أهل الشريعة وفقهائهم، ولكن آخر ما ختمها به قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ويروى في الخبر بأن هذا آخر ما نزل من القرآن.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن أوامر الله تعالى لعباده مماثلة لأوامر الملوك، وذلك أن من سنة الملوك والخلفاء وكثير من الرؤساء ومن آدابهم أنهم إذا تفرَّس أحدهم في أحد أولاده أو عبيده النجابة والفلاح؛ عني به أفضل عناية في تعليمه وتأديبه ورياضته، وحماه من اللعب واللهو والانهماك في الشهوات، ونهاه عن ترك الآداب وسوء الأخلاق وما لا يليق بأخلاق الرؤساء والعقلاء والأخيار؛ كل ذلك ليتخرج ويكون مهذباً متهيئاً لقبول ما يُراد منه أن يكون خليفة لمولاه ومكان أبيه في الرياسة والملك.

وهكذا كان تأديبُ الله تعالى لأنبيائه ورُسُلِهِ وأوليائه من المؤمنين فيما أمرهم به من اتباع رضوانه ونهاهم عنه من اتباع هوى أنفسهم — كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وهكذا أيضاً إن كثيراً من أولاد الملوك وعبيدهم إذا أحس من أبيه أو مولاه ما ذكرنا أخذ نفسه بامثال أمره ونهيه وترك شهواته واتباع هواه؛ كل ذلك لما يرجو من الأمر الجليل والخطب العظيم، فهكذا حكم أولياء الله من المؤمنين الذين يرجون لقاء الله.

وأما المتخلفون والمدابير من أولاد الملوك والرؤساء وعبيدهم الأشقياء الذين لا يرجون ما يوعدون؛ فهم لا يقبلون ما يؤمرون، ولا يسمعون ما يُقال لهم، ولا يفكرون فيما يُقال من الترغيب والترهيب، بل يسعون ليلهم ونهارهم في طلب شهواتهم وارتكاب هوى

أنفسهم، فلا جرم أنهم يحرمون ما ينال إخوانهم من الرياسة والأمر والنهي والسلطان والعزِّ والكرامات، فأما هؤلاء المداير من أولاد الملوك فلا يصلحون لشيء غير أن يكونوا رهائِن عند أعدائهم، أو معتقلين عند إخوتهم.

فهكذا يا أخي حُكِّم الكافرين والمنافقين والفاسقين في الآخرة؛ يحرمون ما ينال المؤمنين من الكرامات والقرب والمراتب والدرجات والسرور واللذات؛ عقوبة لهم لما تركوا من وصية ربهم، وارتكبوا هوى أنفسهم، وضلوا عن الهدى، وحرموا الثواب والجزاء، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية.

وإذ قد تبين بما ذكرنا أن تأديب الله للمؤمنين مماثل لتأديب الملوك لأولادهم، فنقول: اعلم يا أخي أن وعده ووعيدته وعذابه للكافرين والمنافقين والفاسقين مماثلٌ لوعيد الطبيب المشفق الحكيم لولده الجاهل العليل، كما بيَّنَّا في رسالة الآلام واللذات، وقد ذكر الله وعده للمؤمنين ووعيدته للكافرين والمنافقين في القرآن في نحو من ألف آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية، وإنما جعل الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — ثواب المؤمنين الجنان ونعيم الآخرة؛ لأن الإيمان خصلة تجمع فضائل كثيرة ملكية وشرائط كثيرة عقلية، فللمؤمنين علامات يُعرفون بها ويتميزون على الكافرين والمنافقين، وقد بينا طرفاً من هذا العلم في رسالة الإيمان وخصال المؤمنين، ولكن نحتاج أن نذكر في هذه الرسالة طرفاً منها؛ ليكون تذكاراً وموعظة للغافلين، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فصل

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن خواص عباده المؤمنين العارفين المستبصرين يعاملون الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بالصدق واليقين، ويحاسبون أنفسهم في ساعات الليل والنهار فيما يعملون، كأنهم يشاهدون الله ويرونه، فيجدون ثواب أعمالهم ساعة ساعة، لا يتأخر عنهم لحظة واحدة، وهي البُشرى في الحياة الدنيا قبل بلوغهم إلى الآخرة، ويرون جزاء سيئاتهم أيضاً يعقب أفعالهم، لا يخفى عليهم إلا قليل، وإليهم أشار بقوله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾، وآيات كثيرة ذكرها بمدحهم وحُسن الثناء عليهم، وهم أَعْرَفُ الناس بالله وأحسنهم معاملةً معه.

وذكروا أن واحداً منهم اجتاز يوماً في بعض سياحته براهب في صومعة له على رأس تل، فوقف بيازائه فناده: يا راهب، فأخرج رأسه إليه من صومعته، وقال: من هذا؟ قال: رجل من أبناء جنسك الآدميين، قال: فما تريد؟ قال: كيف الطريق إلى الله؟ قال الراهب: في خلاف الهوى، قال له: فما خير الزاد؟ قال: التقوى، قال: لم تباعدت عن الناس وتحصنت في هذه الصومعة؟ قال: مخافة على قلبي من فتنتهم وخذراً على عقلي الحيرة من سوء عشرتهم، فطلبت راحة نفسي من مقاساة مداراتهم وقبيح أفعالهم، وجعلت معاملتي مع ربي فاسترحت منهم.

قال: فأخبرني كيف وجدتهم؟ قال: أسوأ قوم وأشتر أصحاب، ففارقتهم، قال: فكيف وجدتم يا معشر أتباع المسيح معاملتكم مع ربكم؟ فاصدقني القول ودع عنك تزويق الكلام وزخارف الألفاظ، فسكت الراهب متفكراً، ثم قال: أسوأ معاملة تكون، قال له: وكيف ذلك؟ قال: لأنه أمرنا بكد الأبدان وجهد النفوس وصيام النهار وقيام الليل وترك الشهوات المركوزة في الجبلة ومخالفة الهوى الغالب ومجاهدة العدو المتسلط والرضا بخشونة العيش والصبر على الشدائد والبلوى، ومع هذه كلها جعل الأجر نسيئه في الآخرة بعد الموت مع بُعد الطريق وكثرة الشكوك والحيرة، فهذه حالتنا في معاملتنا مع ربنا، فخبرني عنكم يا معشر أتباع أحمد، كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم؟ قال: خير معاملة تكون وأحسنها.

قال الراهب: صفها لي، قال له: إنه أعطانا سلفاً كثيرة ومواهب جزيلة لا تُحصى فنون أنواعها من النعم والإحسان والأفضال، فنحن ليلنا ونهارنا نتقلب في أنواع من نعمه وفنون من آلائه ما بين سالف معتاد وأنف مستفاد وخالف منقاد، قال الراهب: كيف خصصتم بهذه المعاملة دون غيركم والرب واحد؟ قال: أما النعمة والإحسان والأفضال فعموم للجميع، قد عمتنا كلنا، ولكن نحن حُصصنا بحسن الاعتقاد وصحة الرأي والإقرار بالحق والإيمان والتسليم، فوفقنا لمعرفة الحقائق لما أعطينا بالانقياد والإيمان والتسليم وصدق المعاملة من محاسبة النفس وملازمة الطريق، وتفقد تصاريح الأحوال الطارئة من الغيب ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي والإلهام ساعة بساعة.

قال الراهب: زدني في البيان، قال: نعم، اسمع ما أقوله وافهمه، واعقل ما تفهم. إن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لما خلق الإنسان من طين ولم يكن شيئاً مذكوراً وجعل نسله من سلالة ماء مهين، ثم جعله نطفةً في قرار مكين، ثم قلبه حالاً بعد حال تسعة أشهر إلى أن أخرجته من هناك خلقاً سوياً بنية صحيحة وصورة تامة وقامة منتصبية وحواس سالمة،

ثم زوده من هناك لبناً لذيذاً خالصاً سائغاً لذة للشاربين حولين كاملين، ثم رياه وأنشأه وأناماه بفنون من لطفه وغرائب من حكمته إلى أن بلغه أشده واستوى ثم آتاه حكماً وعلماً وقلباً ذكياً وسمعاً دقيقاً وبصراً حاداً وذوقاً لذيذاً وشمّاً طيباً ولمساً ليناً ولساناً ناطقاً وِعقلاً صحيحاً وفهماً جيداً وذهناً صافياً وتمييزاً وفكراً وروية ومشينة واختياراً وجوارح طائعة ويدين صانعتين ورجلين ساعيتين.

ثم علمه الفصاحة والبيان والخط بالقلم والصنائع والحرف والزراعة والبيع والتجارة والتصرف في المعاش وطلب وجوه المنافع واتخاذ البنیان وطلب العز والسلطان والأمر والرياسة والتدبير والسياسة، وسخر له ما في الأرض جميعاً من الحيوان والنبات والمعادن، فغداً متحكماً عليها تحكم الأرباب ومتصرفاً فيها تصرف الملوك، متمتعاً بها إلى حين.

ثم أراد الله أن يزيده من إحسانه وفضله وجوده وإنعامه شيئاً آخر أشرف وأجل مما عددنا وذكرنا، وهو ما أكرم الله به ملائكته وخالص عباده وأهل جنته من النعيم الذي لا يشوبه نقص ولا تنغيص؛ إذ كان نعيم الدنيا مشوباً بالبؤس ولذاتها بالآلام وسرورها بالحزن وراحتها بالنصب وعزتها بالذل وصفوها بالكدر وغناها بالفقر وصحتها بالسقم وأهلها فيها مُعذَّبون في صورة المنعمين، مغتمُّون في صورة المغبوظين، مغرورون في صورة الواثقين، مهانون في صورة المكرمين، وجِلُّون غير مطمئنين، خائفون غير آمنين.

مترددون بين الأضداد من نور وظلمة، ليل ونهار وشتاء وصيف وحر وبرد ورطب ويابس ونوم ويقظة وجوع وشبع وعطش وري وراحة وتعب وشباب وهرم وقوة وضعف وحياة وموت، وما شاكل ذلك من الأمور التي أهل الدنيا وأبنائها مترددون بينها، متحيرون فيها، مدفوعون إليها.

فأراد ربك أن يخلصهم من هذه الآلام المشوبة بالذات، وينقلهم منها إلى نعيم لا بُؤس فيه، ولذة لا يشوبها ألم، وسرور بلا حزن، وفرح بلا غم، وعز بلا ذل، وكرامة بلا هوان، وراحة بلا تعب، وصفو لا يخالطه كدر، وأمن بلا خوف، وغناء بلا فقر، وصحة بلا سقم، وحياة بلا موت، وشباب بلا هرم، ومودة لازمة، ونور لا يشوبه ظلام، ويقظة بلا نوم، وذكر بلا غفلة، وعلم بلا جهالة، وصداقة بلا عداوة بين أهلها، ولا حسد ولا غيبة، إخواناً على سرر متقابلين، آمنين مطمئنين أبد الأبدين ودهر الداهرين.

ولما لم يمكن أن يكون الإنسان هناك بهذا الجسد الفاني والجسم الثقيل المستحيل الطويل العريض العميق المظلم المركب من أجزاء الأركان المتضادة، المؤلفة من الأخلاط الأربعة؛ إذ كان لا يليق بمن هذه سبيله من تلك الأوصاف الصافية والأحوال الباقية اقتضت

العناية بواجب حكمة الباري — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — أَنْ يَنْشَأَ نَشْوءًا آخَرَ، كما ذكر الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ يعني: النشأة الأخرى، وقال: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ فبعث بلطفه أنبياءه ورسله يرغبونهم فيها، ويدلونهم على طريقها؛ كي ما يطلبوها ويكونوا لها مستعدين قبل الورود إليها، ولكي يسهل عليهم مفارقة ما ألفوا من الدنيا من شهواتها ولذاتها، وتخفف عليهم شدائد الدنيا ومصائبها؛ إذ كانوا يرجون بعدها ما يغمرها ويمحو ما قبلها من نعيم الدنيا وبؤسها، ويحذرونهم أيضًا التواني في طلبها؛ كي لا يفوتهم ما وعدوا به، فإنه من فاتته فقد خسر الدنيا والآخرة جميعًا، وضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيئاً.

فهذا رأيُنَا واعتقادنا يا راهب في معاملتنا مع ربنا، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في الدنيا، وسهل علينا الزهد فيها وترك شهواتها، واشتدت رغبتنا في الآخرة، وزاد حرصنا في طلبها، وخف علينا كد العبادة، فلا نحس بها، بل نرى أن ذلك نعمة وكرامة وعز وشرف؛ إذ جعلنا أهلاً أن نذكره؛ وإن هدى قلوبنا وشرح صدورنا ونورَ أبصارنا لما عرفنا من كثرة إنعامه وفنون ألطافه وإحسانه.

قال الراهب: جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه، ومن ذاكر أنعاماً ما أحسنه، ومن هادٍ رشيدٍ ما أبصره، وطبيب رفيقٍ ما أحذقه، وأخٍ ناصحٍ ما أشفقه.

فصل

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الأمور الطبيعية محيطة بنا ومحتوية على نفوسنا كإحاطة الرحم بالجنين، وكإحاطة قشرة البيضة بمحها؛ كل ذلك حرص من الطبيعة على تميمها وتكميلها وصيانتها من الآفات العارضة إلى أجل معلوم، فإذا جاء وقت الخروج من هناك بعد تتميم البنية وتكميل الصورة، فالجنين حينئذٍ هو الذي يحرك أعضائه، ويركض برجليه، ويضرب بيديه حتى يخرق المشيمة، وتتقطع تلك الأوتار والرباطات التي كانت تمسكه هناك، ويمكنه الخروج من الرحم، وكذلك أفعال الفرخ بالبيضة، فهذا قياس ودليل لكل نفس تريد فراق الدنيا والخروج من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح، وتنبه لها على أنه ينبغي لنا أن نتحرك ونجتهد حتى ندفع عن أنفسنا الأخلاق الطبيعية المركوزة في الحيلة المذمومة منها، المانعة للنفوس عن النهوض والخروج من عالم الكون والفساد إلى عالم الأفلاك وسعة السماوات ومعدن الأرواح ومقر النفوس.

فلما كان هذا كما ذكرناه، ولم يكن في منة إنسان أن يعقل هذا الأمر الجليل، ويفهم هذا الخطب الخطير؛ كان من فضل الله وإحسانه وإكرامه لعباده أن بعث إليهم النبيين والمرسلين مؤيدين؛ ليعلموا الناس هذه الأمور ويعرفوهم هذا الخطب وينبوههم عليه ويدعوهم إليه ويرغبوهم فيه ويحثوهم على طلبه، ويكلفوهم الاجتهاد في نيله طوعاً أو كرهاً، وهذه من جسيم نعم الله سبحانه على عباده وعظيم إحسانه إليهم، الذي عمّمهم كلهم، ولم يخص أحدهم دون الآخر؛ وإذ قد تبين بما ذكرنا بأن بعض نعم الله تعالى وإحسانه ما هي عمومٌ لجميع خلقه لا يخص واحداً دون الآخر، فنريد أن نذكر ما يخص منها، ونبين كيف يكون ذلك، ومن يستحقها ويستأهلها.

فاعلم يا أخي أن من نعم الله وإحسانه وإكرامه ما يخص به خواص من عبيده بحسب اجتهادهم وسعيهم وحسن معاملتهم، ويحرمه قوماً آخرين عقوبةً لهم؛ إذ كان سعيهم واجتهادهم ومعاملتهم بخلاف سعي أولئك واجتهادهم، فهذا الباب من عدله وإنصافه بين خلقه؛ إذ كان الإحسان إليهم والنعم التي هي من قبله تفضلاً عليهم تعمهم كلهم والتي يستحقونها بحسب سعيهم، ويستأهلونها باجتهادهم لا يساوي بينهم فيها؛ إذ لم يكونوا متساوين في العمل.

واعلم يا أخي بأن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — لما بعث أنبياءه ورسله إلى الأمم الجاهلة الغافلة عن هذا الأمر الجليل الخطير؛ لم يأمرهم ولا كلفهم شيئاً شاقاً سوى ما في وسع طاقتهم من القول والعمل والنية والإضمار، فأول شيء أمرهم الأنبياء وطالبوهم به هو الإيمان الذي هو إقرار اللسان لهم بما جاءوا به من الأنباء والأخبار عن أمور غائبة عن حواسهم وترك الجحود والإنكار لها، كما ذكر بقوله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فمن أعطاه الإقرار باللسان وثبت ولم يرجع؛ كان جزاؤه ومكافأته لإقراره في الدنيا عاجلاً أن يهدي الله قلبه بنور اليقين، ويشرح صدره للتصديق بما أخبر به عن الغيب، وينجي قلبه من ألم الكرب والتكذيب، ويخلص نفسه من عذاب الشك والريبة والحيرة، كما وعد — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾؛ يعني: من يقر بلسانه يهد قلبه للتصديق واليقين والإخلاص، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾؛ يعني: أقروا، ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ يعني: يقيناً واستبصاراً ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾؛ يعني: أزال عنهم الشك والارتياب.

واعلم يا أخي بأن المقر بلسانه والمنكر بقلبه يكون شاكاً مرتاباً متحيراً دهشاً، وهذه كلها آلامٌ للقلوب وعذابٌ للنفوس، فأراد الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — أن يخلص عباده المقربين

لأنبيائه بما جاءوا به من هذه الآلام والعذاب، فأمر المقرين بأشياء يفعلونها ونهاهم عن أشياء ليتركوها؛ كل ذلك ليلوهم، فمن قبل وصاياه وعمل بها وثبت عليها كان جزاؤه وثواب عمله في الدنيا عاجلاً قبل وصوله إلى الآخرة؛ أَنْ هَدَى قلوبهم بنور اليقين وَشَرَحَ صدورهم من ضيق الشك والريبة والإنكار والحيرة والدهشة والنفاق وَخَلَّصَهُمْ مِنْ عذابها. وَأَمَّا مَنْ تَرَكَ الوصية ولم يعمل بها، بل خادع ومكر، وأضر خلاف ما أظهر، وَأَسْرَّ غير ما أعلن، وأخلف الوعد، وأقام على هذه المساوئ والمخازي؛ كان جزاؤه وعقوبته أَنْ يُتَرَكَ فِي ريبه متردداً في دينه، متحيراً شاكاً مذبذباً معدباً قلبه، متألماً نفسه، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال لنبيه ﷺ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْنَاهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، فقد تبين بما ذكرنا طرف من كيفية اختصاص الله تعالى المؤمنين بأفضاله وأنعامه وإحسانه إلى قوم دون قوم مكافأة لهم بحسب معاملتهم مع ربهم في عاجل الحياة الدنيا قبل وصولهم إلى الآخرة، وكيف يحرم تلك النعم قوماً آخرين عقوبةً لهم وجزاءً لما تركوا من وصاياه ولم يعملوا بها.

فصل

واعلم يا أخي، أيديك الله، بأنه — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — قد فرض على المؤمنين المقرين به وبأنبيائه أشياء يفعلونها، ونهاهم عن أشياء ليتركوها؛ كل ذلك ليبتليهم بها، وجعلها عللاً وأسباباً ليرقيهم فيها، وينقلهم بها حالاً بعد حال إلى أن يبلغهم إلى أتم حالاتهم وأكمل غاياتهم. واعلم يا أخي بَأَنَّ مَنْ بلغه الله درجة ورتبة، فوقف عندها ولم يرجع القهقري بعد بلوغها، ثم قام بحقها ووفى بشرائطها؛ جعل جزاءه وثوابه أَنْ ينقله من تلك الرتبة والدرجة إلى ما فوقها، ويرفعه من تلك إلى ما هو أشرفُ وأجلُّ منها، ومن جهل قدر النعمة في تلك الرتبة فلم يشكرها، ولا اجتهد في طلب ما فوقها، ولا رغب في الزيادة عليها؛ كان جزاؤه أَنْ يُتَرَكَ مَكَانَهُ وَيُوقَفَ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ عَمَلُهُ، ويحرم المزيد، فيفوته ما وراء ذلك وفوقه من الدرجات والمراتب، وكان ذلك الفوت والحرمان هو عقوبته، والمثال في ذلك ما تقدم ذكره في أمر المؤمنين المقرين المخلصين الصادقين والمنافقين المخادعين المرتابين. وقد ذكر الله تعالى علامات المؤمنين المخلصين الموقنين الصادقين وأعمالهم وأخلاقهم في آيات كثيرة من سُوْرِ القرآن، وذكر أيضاً علامات المنافقين المرتابين المرثيين في آيات

كثيرة، وخاصة ما في سورة الأنفال وسورة التوبة وسورة الأحزاب، بما فيه كفاية عن إعادته ها هنا، ويروى في الخبر أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — كان يأمر الناس أيام إمارته بقراءة هذه السور، ويأمرهم بحفظها ودرسها، وأن يأخذوا أنفسهم بواجب ما دُكر فيها وبراءة ساحتهم مما وُصف فيها من صفات المنافقين المرتابين الشاكين المراءين المخادعين.

فينبغي لك يا أخي أَنْ تجعل هذا الذي ذكرنا دليلاً وقياساً لك في كل ما تُعاملُ به ربك طول عمرك وأيام حياتك، إن أردت أن يرقبك برحمته في المراتب، ويرفعك في الدرجات حتى يبلغك أقصاها وأشرفها في الدنيا والآخرة جميعاً، كما وعد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

(١٢) فصل في فضل طلب العلم

واعلم يا أخي، أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — قد فرض على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتكونها — كما قلنا آنفاً — ولكن ليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد، ولا أقرب له إلى ربه بعد الإقرار به والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه من العلم وطلبه وتعليمه.

وبيان ذكر شرف العلم على ما ذكرناه من فضيلته وجلالته وفضل طلبه وتعلمه، ما روي عن النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — أنه قال: تعلموا العلم؛ فإن في تعلّمه لله خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمونه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبيل الجنة والمؤنس في الوحدة والوحشة، والصاحب في الغربة، والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والمقرب عند الغرباء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة يُهْتَدَى بهم، وأئمة في الخير تُتَّقَى آثارهم، ويوثق بأعمالهم، ويُنْتَهَى إلى آرائهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنتها تمسحهم، وفي صلاتها تستغفر لهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها.

لأن العلم حياة القلب من الجهل، ومصاييح الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأحرار ومجالس الملوك، والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة، والفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام؛ به يُطاع الله، وبه يُعبد، وبه يعلم الخير،

وبه يتورع، وبه يؤجر، وبه توصل الأرحام، وبه يُعرَفُ الحلال والحرام، واعلم أن العلم إمامُ العمل، والعمل تابعه، ويلهمه الله السعداء، ويحرمه الأشقياء.

فصل

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن طالب العلم يحتاج إلى سبع خصال، أولها السؤال والصمت، ثم الاستماع، ثم التفكير، ثم العمل به، ثم طلب الصدق من نفسه، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله، ثم ترك الإعجاب بما يُحسُّنه، والعلم يُكسب صاحبه عشر خصال محمودة، أولها الشرف وإن كان دنياً، والعز وإن كان مهيناً، والغناء وإن كان فقيراً، والقوة وإن كان ضعيفاً، والنبل وإن كان حقيراً، والقرب وإن كان بعيداً، والقدر وإن كان ناقصاً، والجد وإن كان بخيلاً، والحياء وإن كان صلفاً، والمهابة وإن كان ضيعاً، والسلامة وإن كان سقيماً، وقال الله — جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وآيات كثيرة في القرآن في مدح العلماء وفضائلهم وحسن الثناء عليهم في مثل ذلك.

واعلم يا أخي بأن للعلماء — مع كثرة فضائل العلم — آفات وعيوباً وأخلاقاً ردية، تحتاج أن تتجنبها وتتحذرها، فمنها الكبر والعجب والافتخار، وقد رُوِيَ عن رسول الله أنه قال: من ازداد علماً ولم يزد الله تواضعاً، وللجهال رحمة، وللعلماء مودة؛ لم يزد من الله إلا بعداً. ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه وطلب الرياسة به والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم، وقال لقمان الحكيم لابنه: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور العلم، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر، وإياك ومنازعة العلماء؛ فإن الحكمة نزلت من السماء صافية، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى أهواء أنفسهم.

ومن آفات العلماء الخوض في المشكلات والترخيص في الشبهات وترك العمل بموجبات العلم، ومن آفات العلماء أيضاً كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها، وقد قيل في المثل: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والحرص في طلبها مرض للنفوس وسقام لها، وعلماء أحكام الناموس هم أطباء النفوس ومداووها، فمثل العالم الراغب في الدنيا الحريص على طلب شهواتها كمثل الطبيب المداوي غيره وهو مريض لا يرجي صلاحه، فكيف يشفي المريض بعلاجه؟ وقد قيل: إن عالماً زاهداً في الدنيا، يكون عالماً بدين الله

وبصيراً بطريق الآخرة خيراً من ألف عالم راغب فيها، وقال المسيح — عليه السلام: أيها العلماء والفقهاء قعدتم على طريق الآخرة، فلا أنتم تسيرون إليها فتدخلون الجنة، ولا تتركون أحدًا يجوزكم فيصل إليها، وإن الجاهل أعذر من العالم، وليس لواحد منهما عذر. واعلم يا أخي بأن كل علم وأدب لا يؤدي صاحبه إلى طلب الآخرة ولا يعينه على الوصول إليها، فهو وبالٌ على صاحبه وحجةٌ عليه يوم القيامة؛ وذلك أن الملوك والجبابة والفراعة والقرون الماضية كانت لهم عقولٌ رضية، وأداب بارعة، وسياسة وحكمة وصنائعٌ عجيبة، وهكذا من كان يعاشرهم وينادهم ويقرب إليهم من وزراءهم وكتابهم وعمالهم وقوادهم وعلمائهم وأدبائهم، ولكن هلكوا من أجل أنهم صرفوا تلك القوى والعقول والأفهام وأكثر أفكارهم وتمييزهم ورويتهم في طلب شهوات الدنيا والتمتع بلذاتها ونعيمها بالرغبة الشديدة والحرص والتمني للخلود فيها، وجعلوا أكثر كدِّهم وسعيهم في صلاح أمور الدنيا حتى عمروها وأهملوا الآخرة وذكر المعاد، ولم يستعدوا له وذكروا الدنيا وغفلوا عن الآخرة ولم يتزودوا من الدنيا، وتركوها لغيرهم، ورحلوا عنها كارهين، فصارت تلك النعم وبالاً عليهم؛ إذ لم ينالوا بها الآخرة، ففسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وإنما أكثر الله سبحانه في القرآن ذمَّ هؤلاء وسوء الثناء عليهم؛ لكي ما يعتبر بهم المعتبرون ممن يجيء بعدهم ويتعظوا بحالهم، ولا يغتروا بالدنيا كاغترارهم، كما قال الله — جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا تُعْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، وقال: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ إلى آخر الآية، وقال — تعالى ذِكْرُهُ: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ الآية، وقال: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، وآيات كثيرة في القرآن في ذم الراغبين في الدنيا، والتحذير منها ومن غرورها وأمانيتها.

كل ذلك نصح من الله سبحانه لعباده المؤمنين ولطف بهم ونظر ورحمة؛ لئلا تفوتهم الآخرة كما فاتت أولئك؛ ولئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من يحيى عن بينة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فصل

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن من الأخلاق المكتسبة ما هي محمودة منسوبة إلى الملائكة، كما سنبينها بعد، ومنها ما هي مذمومة منسوبة إلى الشيطان، وهي كثيرة نحتاج أن نبينها ونشرحها؛ ليظهر الفرق بينهما ويعرفها إخواننا الكرام، فيجتنبوا أخلاق الشياطين ويتركوها ويتخلقوا بأخلاق الملائكة الكرام ويؤثروها، ويجتهدوا في اكتسابها؛ إذ كانت أخلاق النفوس هي أحد الأربعة الأشياء التي لا تفارق النفس بعد مفارقتها الأجساد وعليها أيضًا تجازى النفوس إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وهذه الأربعة الأشياء التي ذكرنا أن النفس تجازى عليها بعد الفراق، أولها الأخلاق المكتسبة المعتادة، والثاني العلوم التعليمية، والثالث الآراء المعنقدة، والرابع الأعمال المكتسبة بالاختيار والإرادة، فمن أخلاق الشياطين أولها كبر إبليس وحرص آدم وحسد قابيل.

واعلم يا أخي بأن هذه الخصال الثلاث هي أمهات المعاصي وأصول الشرور، ولها أخوات مشاكلات لها، وفروع وأغصان متفننات منها نحتاج أن نذكر طرفًا منها ليعلم صحة ما قلنا ويُعرف حقيقة ما وصفنا.

فمن أخوات الكبر وأشكاله عجب المرء برأي نفسه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، والانقياد لأمر الأمر والناهي الواجب الطاعة، والتعدي والخروج عن الحد الواجب والحق اللازم، والظلم والجور عند القدرة في الحكومات، وترك الإنصاف في المعاملة، والتهاون في الواجبات، والإعراض عن اللوازم من الحقوق، والقحة والصلابة في الوجه في دفع الحق والعيان والضرورات والفحش والسفاهة في الخطاب والجدال واللجاج في الخصومات والخرق والنزق في العشرة، والحدة والطيش في التصرف، والغش والمكر في المعاملة، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس، والاستطالة عليهم والافتخار في الأمور بما خص من المواهب، والإنكار لفضل من فضل عليه، والبغي والعدوان وما شاكلها من الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة والأفعال السيئة والأعمال القبيحة.

ومن أخوات حرص وأشكاله الطمع الكاذب، وشدة الرغبة، والطلب الحثيث، والعجلة في السعي، وتعب البدن، وعناء النفس، وكد الروح في الجمع والادخار، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخل والمنع والشح واللؤم والنكد، وما يتبعها من الشؤم والخذلان وقلة الانتفاع بالموجود، والحرمان من المدخور، والمضايقة في المعاملة، والمناقشة في المحاسبة، وسوء الظن بالأمين، والتهمة للثقات والمؤتمنين، والخيانة في الأمانة، وطلب

الحرام وهتك الحرم، وارتكاب الفحشاء، وإضرار القلب على الإضرار، وإظهار الكذب لكتمان السر، والحيل في أسباب الطلب من البيع والشراء، والغش في الأمتعة، وقلة النصيحة في الصنائع، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار في الحكومات، وأقاويل الزور في أسباب الخصومات، والعداوة والتعدّي في الحدود، وما شاكلها من الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة والأقاويل الباطلة والأفعال القبيحة والأعمال السيئة.

ومن أخوات الحسد وأشكاله الحقد والغلّ والدغل، ثم تدعو هذه الخصال إلى المكاشفة بالعداوة والبغضاء والبغي والغضب والحدرد والتعدي والعدوان وقساوة القلب وقلة الرحمة والفظاظة والغلظة والطعن واللعن والفحشاء، وتكون سبباً للخصومة والشر والحرب والقتال، إن أمكن ذلك جهاراً وإعلاناً، وإلا يدعو إلى المكر والحيلة والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء، ويصير ذلك سبباً لتشتيت الشمل وتفريق الجميع وقطيعة الرحم والبُعد من الإخوان ومفارقة الإلف وخراب الديار ووحشة الوحدة والحزن والغم وألم القلب وهموم النفس وعذاب الأرواح وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران الدنيا والآخرة، نعوذ بالله من هذه الخصال والشور والأخلاق والأفعال القبيحة والأعمال السيئة الدنية التي تُنكرها العقول السليمة والنفوس المهذبة والأرواح الطاهرة.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن المتكبر عن قبول الحق عدو للطاعة، وقد قيل: إن الطاعة هي اسمُ الله الأعظم الذي به قامت السماوات والأرض بالعدل، وخذ الكبر التواضع للحق والقبول له، ويُقال في المثل السائر: مَنْ تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، وقيل في بعض كُتُب بني إسرائيل: قال الله — سبحانه وتعالى: الكبر ردائي والعظمة إزارِي فَمَنْ نازعني فيهما كببته في نار جهنم على منخريه، قال الله — عَزَّ وَجَلَّ — في القرآن: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقيل: إنَّ الحرص الشديد ربما كان سبب الحرمان، والحاسدُ عدوٌ لنعم الله، وليس للحاسد إلا ما حسد، وقال الله — جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فاحذر يا أخي من هذه الخصال والأخلاق والأعمال؛ فإنها من أخلاق الشياطين وجنود إبليس أجمعين الذين يبغض بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، وآيات كثيرة في القرآن في ذم هؤلاء وسوء الثناء عليهم.

فقد تبين بما ذكرنا أن الكِبْرَ والحرص والحسد أصولٌ وأمّهاتٌ لسائر الخصال المذمومة والأخلاق الرديئة المنتشرة منها الشرور والمعاصي كلها، فاحذر يا أخي منها، فإن

قيل: ما الحكمةُ والفائدةُ في كون هذه الخصال الثلاث موجودةً في الخليقة، مركوزةً في الجبلية؟ فنقول: أما التَكَبُّرُ فهو من كبر النفس، وكبر النفس هو من عُلُوِّ همتها، وعلو الهمة جُعِلَ في جبلية النفس لطلب الرياسة، وطلب الرياسة من أجل السياسة، وذلك أن الناس محتاجون في تصارييف أمُورهم إلى رئيس يسوسهم على شرائط معلومة، كما ذُكر ذلك في كتب السياسات بشرح طويل، وقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة سياسة النبوة والملك، فإذا لم يكن الرئيس عالي الهمة كبير النفس؛ لم يصلح للرياسة، وكبر النفس يليقُ بالرؤساء، ويصلحُ للملوك وسياسة الجماعات، فأما الرعيةُ والأعوان والأَتَبَاعُ والخدم والعبيد فلا يصلح لهم كبر النفس ولا يليق بهم.

وأقول بالجملة: إن كبر النفس في كل وقت وفي كل شيء ليس بأمر محمود، ولكن إذا استعمل كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي بمقدار ما ينبغي من أجل ما ينبغي؛ سمي ذلك محموداً، فيكون عامل ذلك طلق النفس ذا مروءة، عالي الهمة عفيفاً كريماً جميلاً دينياً، ويكونُ صاحبهُ محموداً معظماً مبدلاً مهيباً، وأما التَكَبُّرُ عن قبول الحق وترك الإقرار بالواجب والفسق عن أمر الرئيس وترك الانقياد والإذعان للطاعة المفروضة؛ فهو الذمومُ وهو هو الشر والمعصية والمنكر.

وأقول بالجملة: ينبغي لك يا أخي أَنْ تَعْلَمَ وَتَتَيَقَّنَ بأنك كما تريد وتحب وتشتهي من عبدك أن ينقاد لأمرك وكذلك خادمك وأجيرك وتابعك وزوجك وولدك ولا يتكبرون عليك ولا يخرجون عن أمرك، ولا يجاوزون نهيك؛ فهكذا ينبغي ويجب أن تكون لرئيسك ومَنْ هو فوقك في الأمر والنهي حتى تكون عادلاً منصفاً محقاً ممدوحاً مثاباً مجازاً ملتدّاً فرحاً مسروراً منعماً مكرماً؛ فقد تبين بما ذكرنا ما الحكمة والفائدة في وجود التكبر في طباع النفس المركوزة في جبلتها، ومتى يكون صاحبه مذموماً معاقباً، ومتى يكون محموداً مثاباً.

وأما كون الحرص في طلب المرغوب فيه الموجود في الخليقة، المركوز في الجبلية؛ فهو من أجل أن الإنسان لَمَّا حُلِقَ محتاجاً إلى مواد لبقاء هيكله ودوام شخصه مدة ما وإبقاء صورته في نسله زماناً ما؛ جعل في طبيعه وجِبَلَّتِهِ الرغبة فيها والحرص في طلبها والجمع لها والادخار والحفظ لوقت الحاجة إليها؛ إذ كان ليس في كل وقت وفي كل مكان موجوداً ما يريده ويحتاج إليه، فإذا رغب الإنسان فيما يحتاج إليه وطلب ما ينبغي له وجمع مقدار الحاجة وحفظه إلى وقت الحاجة، ثم استعمل ما ينبغي كما ينبغي، وأنفق بقدر الحاجة؛ فهو يكون محموداً عادلاً منصفاً محقاً مصيباً مأجوراً ملتدّاً مُثَاباً مُنْعَمًا فَرِحًا مسروراً مكرماً.

فقد بيَّنَّا ما الحكمة والفائدة في كَوْن الرغبة والحرص في الجبلة المركوزة، فإذا طلب ما لا يحتاج إليه كان مذمومًا، أو جمع أكثر مما يحتاج إليه كان متعوبًا، أو جمع ولم ينفق ولم يستعمل في وقت الحاجة إليه كان مقتراً محرومًا، فإن أنفق واستعمل فيما لا ينبغي كان مسرفًا مخطئًا جائرًا معاقبًا معذبًا، وروي عن رسول الله — صلى الله عليه وآله — أنه قال: من طلب الدنيا تعففًا عن المسألة، وتوسعًا على عياله، وتعطفًا على جاره؛ لقي الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا مكاثراً مفاخرًا مرأئياً؛ جعل الله فقره بين عينيه، ولم يبال الله به بأي وإد هلك.

فأما كون الحسد المركوز في الجبلة، الموجود في الخليقة، فهو من أجل التنافس في الرغائب من نعم الله، وذلك أن نعم الباري تعالى على خلقه كثيرة لا يحصي عددها إلا هو، ولم يمكن أن يجمع عددها كلها على شخص واحد، ففرقت في الأشخاص بالقسط كما شاء ربهم — عَزَّ وَجَلَّ — وضعها، وفضل بعضهم على بعض كما اقتضت حكمته فلم يخل أحد من الخلق من نعم الله وآلائه، ولا استوفاهما أحدٌ من خلقه، فمن رأى على أحدٍ من الخلق نعمةً ليست عليه بعينها، فلينظر هل عليه نعمة ليست بعينها على ذلك الشخص، فيقابل هذه بتلك، ويشكر الله، ويسأله أن يديمها عليه، ومن رأى على أخيه نعمة ليس عليه مثلها، فليسأل الله تعالى من فضله، ولا يتمنى زوال تلك عن أخيه؛ فإن ذلك هو الحسد بعينه، وهو المذموم الذي يكون الحاسد به معذبة نفسه، مؤلمًا قلبه، عدوًّا لنعم الله على خلقه.

(١٣) فصل في الحرص والزهد ودرجات الناس

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأنك إن أنعمت النظر بعقلك، وجودت الفكر برويتك، وتاملت أمور الدنيا، واعتبرت تصاريف أحوال الناس؛ تبينت وعرفت أن أكثر الشرور التي تجري بين الناس إنما سببها شدة الرغبة في الدنيا والحرص على طلب شهواتها ولذاتها ورياستها، وتمنى الخلود فيها. وإذا تأملت واعتبرت؛ وجدت أس كل خير وأصل كل فضيلة الزهد في الدنيا وقلة الرغبة في شهواتها ونعيمها ولذاتها والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر المعاد في آناء الليل وأطراف النهار والاستعداد للرحلة إليها.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الخلق كلهم عبيد الله وأهل طاعته طوعًا أو كرهًا، ولكن منهم خاص وعام وما بينهما طبقات متفاوتة الدرجات، فأول الخواص هم العقلاء الذين توجه نحوهم الخطاب بالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح

والذم والترغيب والترهيب، ثم إن الله تعالى — بواجب حكْمَتِهِ — رفع قدر المؤمن على سائر العقلاء وهم المقرون والقابلون وأوامره ونواهيه، المنقادون لطاعته فيما رَسَمَ لهم في أحكام النواميس وموجبات العقول، التاركون لما نُهوا عنه سرًّا وعلانية.

ثم إن الله سبحانه رفع من المؤمنين المقربين المخلصين، واصطفى منهم طائفةً، وفضلهم على غيرهم، وهم العلماء والفقهاء الذين اجتهدوا في تعلُّم أوامر الناموس ونواهيه وأحكامه وحدوده وشرائطه بواجبها، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

ثم إن الله — جَلَّ اسْمُهُ — رفع من جملة العلماء طائفةً، وهم التائبون العابدون الصالحون الوَرَعون المتقون المحسنون بما استحقوا باجتهداهم من القيام بواجبات أحكام الناموس درجات، كما ذكر الله — عَزَّ وَجَلَّ — بقوله: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَائِتُ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، وآيات كثيرة في القرآن في ذكر هؤلاء ومدحهم وحسن الثناء عليهم.

ثم إن الله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ — رفع من هؤلاء طائفة في الدرجات وهم الزاهدون في الدنيا، العارفون عيوبها، الراغبون في الآخرة، المتحققون بها، الراسخون في علمها، وهم أولياء الله المخلصون، وعباده المؤمنون، وصفوته من خلقه أجمعين، الذين سَمَّاهُمُ الباري تعالى: أولي الأبواب وأولي الأبصار وأولي النهي، وأَخْلَصَهُمْ بخالصة ذكرى الدار، التي هي الحيوان، وإليهم أشار بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وآيات كثيرة في القرآن، في ذكرهم ومدحهم وحسن الثناء عليهم.

واعلم يا أخي، أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن للمؤمنين فضائل كثيرة من محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال وفضائل الأعمال وجميل الفعال، لا يمكن أن تجمع كلها في شخص واحد، بل في عدة أشخاص فَمُقِلٌ ومكثر، ولكن ليس بعد العلم والإيمان خصلة للمؤمنين ولا خُلِقَ من أخلاق الكرام أشرف ولا أجل ولا أفضل من الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، وذلك أن الزهد في الدنيا إنما هو ترك فضول متاع الحياة الدنيا وترك طلب شهواتها والرضا بالقليل والقناعة باليسير من الذي لا بد منه، وهذه خصلة تتبعها خصال كثيرة من محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال وجميل الأفعال.

و ضد الزهد هو الرغبةُ في الدنيا والحرص في طلب شهواتها، وهي خصلة تتبعها أخلاق ردية وأفعال قبيحة وأعمال سيئة — كما تقدم ذكره — وذلك أن من خصال الزهاد وشعارهم قلة الأكل وترك الشهوات، وفي قلة الأكل وترك الشهوات خصالٌ محمودةٌ كثيرةٌ، ومناقِبٌ حسنةٌ جميلة، فمنها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال «أجبعوا أنفسكم تفرح بكم سكان السماء»، ومنها أن الإنسان يكون أصحَّ جسمًا وأجودَ حفظًا وأزكى فهمًا وأجلى قلبًا وأقل نومًا وأصدق رؤيا وأخف نفسًا وأحد بصرًا وألطف فكرًا وأصغى سمعًا وأصح حسًا وأثبت رأيًا وأقبل للعلم وأسرع حركة وأسلم طبيعة وأقل مؤنة وأوسع مواساة وأكرم خلقًا وأثبت صحة وأحلى في القلوب.

وقلة الأكل إذا ساعدته القناعة كان مزرعة الفكر وينبوع الحكمة وحياة الفطنة ومصباح القلب وطبيب البدن وقاتل الشهوات وهادم الوسواس ومنزل الإلهام، وعصمة من شر النفس وأمانًا من شدة الحساب، والشكر له تابع، وكفر النعمة عنه زائل.

(١٤) فصل في آفات الشبع وكثرة الأكل وخصال الزهاد

يروى عن عائشة — رضي الله عنها — أنها قالت: أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد زهاب نبيها ﷺ الشبع وكثرته؛ وذلك أن القوم إذا شبعوا بطونهم سمنت أبدانهم، وقست قلوبهم، وجمحت نفوسهم، واشتدت شهواتهم.

ومن آفات الشبع وكثرة الأكل عفونة القلب، ومرض الأجساد، وزهاب البهائم، ونسيان الرب، وعمى القلوب، وهزال الروح، وسلاح الشياطين، وجراحة الدين، وزهاب اليقين، ونسيان العلم، ونقصان العقل، وعداوة الحكمة، وزهاب السخاء، وزيادة البخل، ومزرعة إبليس، وترك الأدب، وركوب المعاصي، واحتقار الفقراء، وثقل النفس، وإدرار الشهوات، وزيادة الجهل، وكثرة فضول القول، ويزيد في حب الدنيا، وينقص الخوف، ويكثر الضحك، ويحبب العيش، وينسي ذكر الموت، ويهدم العبادة، ويقل الإخلاص، ويذهب بالحياء، ويهيج عادة السوء، ويظيل النوم، ويكثر الغفلة، ويسبب تفريق الأصحاب، ويحرج الأعمال، ويكدر الصفو، ويذهب الحلاوة من القلوب، ويحبب الشيطان، ويغض الرحمن، ويكثر الغم يوم الحساب، ويقرب من النيران، ويبعد من الجنان؛ لأنه سبب المعاصي، ويحرك الكبر، ويثبت الحسد، ويقل الشكر، ويذهب الصبر، فهذه خمسون خصلة تهيج من الشبع وكثرة الأكل.

ويقال: إن المعدة قدر الطعام، وناها حرارة الكبد، فإذا لم ينطبخ كان سبب الأمراض المختلفة، فحسبُ ابن آدم أكلات تعمر بطنه، فإن غلبت الآدمي نفسه، فثَلث للطعام، وثَلث للشراب، وثَلث للنفس.

ومن خِصال الزهاد وشعارهم العفة والتصون؛ فهذه خصلة يتبعها أخلاقٌ جميلةٌ وخصالٌ محمودةٌ وفضائلٌ كثيرة، فمنها الكف والورع والحفظ والوقار والتقى والأمانة والمروءة والكرم واللين والسكون والمراقبة والتوقي والصحة والسلامة وحسن الثناء عليهم والتزكية لهم والغبطة والسرور ومحبة القلوب وبراعة الساحة وسكون الناس إليهم والثقة بهم والإجلال لهم والإكرام، ومن خصال الزهاد أيضًا وشعارهم السخاء والكرم والجود والبذل والمواساة والإحسان والإيثار والإفضال والرأفة والرحمة والتودد والبر والمعروف والصدقة والهدية، ومن خصالهم أيضًا وشعارهم الحلم والأناة والتثبت والرزانة والتؤدة والرفق والمداراة والسكينة والوقار والحياء والصفح والعفو والتغافل والشفقة والرحمة والعدل والنصفة والمحبة والقبول والإجابة والتواضع والاحتمال، ومن خصالهم أيضًا الرضا والقناعة والتجمل والكفاف واليأس من الطمع والراحة من العناء والتسليم للقضاء والصبر في الشدائد والبلوى وحسن العزاء.

ومن خصالهم وشعارهم التوكل على الله والثقة به والطمأنينة إليه والإخلاص له في العمل والدعاء والصدق بالقول والتصديق في الضمير والنصح للإخوان والوفاء بالعهد والحزم والعزم في عمل الخير والإحسان والبر والمعروف والمسارعة في الخيرات رغبا ورهبا، وهم من خشية ربهم مشفقون، فهؤلاء هم أولياء الله وخالص عباده من المؤمنين الذين يحبون الله ويحبهم — كما ذكر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وهم الذين يتمنون لقاءه لما يرجون من التحية، قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، فهل لك يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن ترغب في صحبتهم وتقصد مناهجهم وتقفو أثرهم وتتخلق بأخلاقهم وتسير بسيرتهم، لعلك تفوز بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

واعلم يا أخي بأن الطريق إلى هذه الخصال التي وصفناها هو أن تبتدئ أولاً بسنة الناموس فتعمل بوصايا صاحبه كما هي في كتب النواميس الإلهية يعرفها أكثر علماء أهل الشريعة قد استغنينا عن ذكرها، والذي نوصيك به نحن أن تنزع عن نفسك القشور التي تعلقت عليها من صحبة الجسد، وتخلع اللباس الذي أحاط بها من الأمور الطبيعية والصفات الجسمانية وتجلو عنها الصدأ الذي تركب عليها من أخلاط البدن وسوء الأخلاق وتراكم الجهالات وفساد الآراء، وتنحي عنها هذه الأشياء ليصفو لك اللب

والمخ وهو جوهر نفسك النيرة الشفافة الروحانية النورانية التي هي كلمة من كلمات الله وروح منه نفخها في الجسد وأحياه بها، وهي التي مدحها الله تعالى بقوله: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» الآية، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾؛ يعني به روح المؤمن إذا فارقت الجسد صعد بها إلى سعة السماوات وفسحة الأفلاك فيكون سائحاً هناك حيث شاء ذهب وجاء، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أرواحُ الشهداء في حواصل طيور خُضر تسرح بالنهار في الجنة على رُءوس أشجارها وأنهارها وثمارها، وتأوي بالليل إلى قناديلٍ معلقة تحت العرش». فهذه حالُ أرواح المؤمنين الصالحين بعد الموت، وأما حال أرواح الكافرين والفساقين والفاجرين والمنافقين فلا يصعد بها إلى هناك بل تُحجب دون السماء وتُهيم في هاوية البرزخ إلى يوم يبعثون، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنه لا يليق بها ذلك المكان الشريف والمحل الأعلى، كما لا يليق بالأوساخ من الناس والأقذار منهم مجالس الملوك والسادة والكرام.

فإن أردت يا أخي أن تعرج بروحك إلى هناك بعد فراق الجسد؛ فاجتهد قبل ذلك، واغسلها من درن الأخلاق الرديئة ووسخ الآراء الفاسدة، وأخرجها من ظلّمات الجهالات المتراكمة وجذبها الأعمال السيئة، وألبسها لباس التقوى، وزمها عن الانهماك في الشهوات الجرمانية والغرور باللذات الجسمانية، فأما الآراء الفاسدة فقد بينها في رسالة لنا، وأما كيفية الخُروج من الجهالات المتراكمة فقد بينها في إحدى وخمسين رسالة عملناها في فنون العلوم وغرائب الحكم وطرائف الآداب، وأما تهذيب الأخلاق فقد وصفنا بعضها في هذه الرسالة وبعضها في رسالة عشرة إخوان الصفاء والأصدقاء الكرام، فاقرأهما واعمل بما ذكرنا فيهما وعلمهما إخوانك وأصدقائك؛ فإنك بذلك تفوز وتنال الرُفقى عند ربك أبد الأبدين ودهر الداهرين مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

(١٥) فصل في بيان علامات أولياء الله عزَّ وجلَّ وعباده الصالحين

واعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروح منه، بأن لأولياء الله صفات وعلامات كثيرة يُعرفون بها، ويمتازون عن سواهم، وهكذا أيضاً لأعداء الله علامات وصفات يُعرفون بها ويمتازون عن غيرهم؛ نحتاج أن نذكر طرفاً منها ليعلم كل عاقل فهم مميز مستبصر إذا أراد أن يعرف من أي الفريقين هو لم يخفَ عليه ذلك.

واعلم يا أخي بأن العاقل الفهم المستبصر هو الذي يعرف الفرق بين الأشياء المتشابهة، ويميز بين الأمور المتجانسة، ويفضل بعضها على بعض بعلامات وصفات مختصة بواحد واحد منها.

فنقول الآن: إن من إحدى علامات أولياء الله الصالحين المختصين به ما ذكره الله تعالى بقوله لإبليس اللعين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وحكي أيضًا قول إبليس مجابًا له: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾، وآيات كثيرة في القرآن في ذكر أولياء الله وصفاتهم وعلاماتهم وهي مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ...﴾ إلى آخر الآيات، وآيات كثيرة في القرآن في ذكر أولياء الله تعالى ومدحهم وصفاتهم وعلاماتهم وحسن الثناء عليهم.

ومن علاماتهم وصفاتهم أيضًا حفظ الجوارح من كل ما لا يحل في الشريعة، ولا يجوز في السنة، ولا يحسن في المروءة، ومن علاماتهم وصفاتهم حفظ اللسان عن الكذب والغيبة والبهتان والزور والنميمة والفحش والسفاهة والطعن واللغو والوقيعه في أحد من الخليقة عدوًّا كان أو صديقًا، مخالفاً كان أو مؤلفًا، ومن علاماتهم أيضًا وصفاتهم وهي العمدة والأصل في جميع الخيرات والخصال المحموده سلامة الصدر من الغل والغش والدغل والحسد والبغض والكبر والحرص والطمع والمكر والنفاق والرياء وما أشبهها من الخصال المذمومة، ومما هي مملوءة منها قلوب أبناء الدنيا الراغبين فيها، المكبين عليها، الطالبين لها، ومن علاماتهم أيضًا وصفاتهم المختصة بهم الرحمة والتحنُّن وِرْقَةُ القلب على كل ذي روح يحس بالآلام، ومن خصالهم أيضًا النصيحة والشفقة والرفق والمداراة والتلطف والتودد لكل من يصحبهم ويعاشرهم.

ومن إحدى علامات أولياء الله وعباده المخلصين، ومن أخصَّ صفاتهم التي يمتازون بها عن غيرهم هي معرفتهم بحقيقة الملائكة وكيفية إلهامها، وقد ذكّرنا طرفًا من هذا العلم في رسالة الإيمان وماهيته وخصال المؤمنين، ومن دقيق معرفتهم ولطيف علومهم معرفة حقيقة الشياطين وجنود إبليس اللعين وكيفية وسواسهم ومسهم كما ذكر الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوَنَّهُمْ فِي الْعَيِّ نَمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

ومن علاماتهم وصفاتهم ودقيق علومهم ولطيف أسرارهم معرفة البعث والقيامة والنشر والحشر والحساب والميزان والصراف والجواز؛ وذلك أَنَّ أكثر علماء أهل الشرائع النبوية وفقهائهم المتعبدين فيها متحIRON في معنى الإبلسية وحقيقة إبليس المخاطب لرب العالمين بقوله: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾، وأكثر العلماء شاكرون في وجود هذا القائل: ﴿لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وأكثر المتفلسفة منكرون قصته مع آدم وعداوته له وخطابه لرب العالمين ومواجهته له بخشونة الخطاب، بما ذكر الله سبحانه في القرآن في نحو من خمسين آية مثل قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، وآيات كثيرة في أمثال هذه الحكايات موجودة في التوراة والإنجيل وصحف الأنبياء — عليهم السلام — كثيرة، وقد بينا نحن معانيها في رسالة البعث والقيامة، ولكن نريد أن نذكر في هذا الفصل منها طرفاً في كيفية عداوة أولياء الله تعالى مع إبليس، وكيفية محاربتهم مع الشياطين ومخالفتهم ومجاهدتهم معهم طول أعمارهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وأنه لا يَخْفَى عليهم مكائدهم، ولا يذهب عنهم غرورهم وأمانيتهم.

(١٦) فصل فيما حكاه ولي من أولياء الله عن كيفية معرفة مكاييد الشياطين ومحاربتهم معهم ومخالفته جنود إبليس أجمعين

قال العالم المستبصر لأخ له من أبناء جنسه فيما جرى بينهما من المذاكرة في أمر الشياطين وعداوتهم: كيف عرفت الشياطين ووساوسهم؟ قال: إني لما نشأت وتربيت وشدت من الآداب طرفاً، وأخذت من العلم نصيباً، وعقلت من أمر المعاش قسطاً، وعرفت أمر المنافع والمضار؛ تبينت ما يجب عليّ من أحكام الناموس من الأوامر والنواهي والسنن والفرائض والأحكام والحدود والوعد والوعيد والذم والمدح على الأعمال والأفعال وعلى تركها، ثم قمت بواجبها جهدي وطاقتي بحسب ما وفقت له وقضي عليّ ويسر لي، ثم تفكرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى، وتفكرت في قول النبي — صلى الله عليه وآله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». يعني: مجاهدة النفس، وتصديقه

قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ وفكرت في قوله — عليه السلام: «لكل إنسان شيطانان يغويانه»، وقوله: «إن شيطاني أعانني الله عليه فأسلم». وقوله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.» وتصديق ذلك قول الله تعالى: ﴿مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ وآيات كثيرة في القرآن في مثل هذا المعنى وأحاديث مروية أيضًا في هذا المعنى كثيرة.

فلما سمعت ما ذكر الله تعالى وتفكرت فيما رُوي عن النبي ﷺ في هذا المعنى، نظرتُ عند ذلك بعقلي وفكرتُ بقلبي وتأمّلت برويتي، فلم أرَ أحدًا في ظاهر الأمر يضادني في هذا المعنى ولا يخالفني ولا يعاديني من أبناء جنسي؛ وذلك لأنني وجدتُ الخطابَ متوجّهًا عليهم كلهم مثل ما هو متوجه عليّ، ووجدت حكمهم في ذلك حكمي سواء لا فرق بيني وبينهم في هذا الأمر، فعلمتُ أن هذا أمر عموم يشمل جميع بني آدم ويعمهم، ثم تأملتُ وبحثتُ ودققتُ النظر؛ فوجدت حقيقة معنى الشياطين وكثرة جنود إبليس اللعين أجمعين ومخالفتهم بني آدم وعداوتهم لهم وسواسهم إياهم؛ هي أمورٌ باطنةٌ وأسرارٌ خفيةٌ مركوزةٌ في الجبلة، مطبوعة في الخليقة، وهي الأخلاق الرديئة، والطباع المذمومة المنتشئة منذ الصبا مع الإنسان بالجهالات المتركمة واعتقادات آراء فاسدة من غير معرفة ولا بصيرة، وما يتبعها من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة المكتسبة بالعادات الجارية الخارجة من الاعتدال بالزيادة والنقصان، المنسوبة إلى النفس الشهوانية والنفس الغضبية.

ثم تأملتُ ونظرتُ فوجدتُ الخطاب في الأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم متوجّهًا كله إلى النفس الناطقة العاقلة المميزة المستبصرة ووجدتها هي بما توصف من الأخلاق الجميلة والمعارف الحقيقية والآراء الصحيحة والأعمال الزكية ملكًا من الملائكة بالإضافة إلى النفس الشهوانية والغضبية جميعًا، ووجدتُ هاتين النفسين؛ أعني: الشهوانية والغضبية بما توصفان به من الجهالات المتركمة والأخلاق المذمومة والطباع المركوزة والأفعال القبيحة التي لهما بلا فكر ولا روية كأنهما شيطانان بالإضافة إلى النفس الناطقة.

ثم تأملتُ وبحثتُ ودققتُ النظر فوجدت جميع الأعمال الزكية والأفعال الحسنة التي هي منسوبةٌ إلى النفس الناطقة إنما هي لها بحسب آرائها الصحيحة واعتقاداتها الجميلة، ثم وجدتُ تلك الآراء والاعتقادات إنما هي لها بحسب أخلاقها المحمودة المكتسبة

بالاجتهاد والروية والعادات الجارية العادلة، أو ما كانت مركوزة في الجبل، فتبينت عند ذلك، وعرفت — بهذا الاعتبار — أن أصل جميع الخيرات وصلاح الإنسان كلها هي الأخلاق المحمودة المكتسبة بالاجتهاد والروية والمركوزة في الجبل.

وتبين لي وعرفتُ أيضًا أَنَّ أَصْلَ جميع الشرور وفسادُ أمور الإنسان كلها هي الأخلاق المذمومة المكتسبة بالعادات الجارية منذ الصبا من غير بصيرة، أو ما كانت مركوزة في الجبل، فلما تبين لي ما قلت وعرفت حقيقة ما وصفت؛ تأملت قول النبي — صلى الله عليه وعلى آله أجمعين: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ يعني: خالفوه وحاربوه كما تحاربون أعداءكم المشركين، فتبين لي بقول النبي ﷺ وقول الله — عَزَّ وَجَلَّ — أَنَّ العدو جنسان والعداوة نوعان والجهاد قسمان: أحدهما ظاهر جلي، وهو عداوة الكفار والمخالفين في الشريعة وحربهم وجهادهم، والآخر باطن خفي وهو عداوة الشياطين المخالفين في الجبل المتضادين في الطبيعة، وتبين أن حربهم وعداوتهم وخلافهم هي الحقيقة، وعداوة الكفار، وحربهم هي العرضية.

وذلك أَنَّ عداوة الكفار هي من أجل أسباب دنيوية وعداوة الشياطين من أجل أسباب دينية وأن غلبتهم وظفرهم يعرض منها شقاوة الدنيا ويفوت العز والسلطان والتمتع بالذات الدنيوية ونعيمها وطيب عيشها، ثم تزول يوماً ما، وأما عداوة الشياطين وغلبتهم وظفرهم فيعرض منها شقاوة الآخرة وعذابها ويفوت عزها وسلطانها ونعيمها ولذاتها وسرورها وفرحها وروحها وربحانها ودوامها، فبحسب التفاوت ما بين هذين الأمرين، قال النبي — صلى الله عليه وآله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وما ذكر الله سبحانه في القرآن في عدة سور في آيات كثيرة من التحذير من مكر الشياطين والغرور بخطراتهم، والأمر بمخالفتهم وعداوتهم والجهاد لهم؛ إذ كان الخطب فيهم أجل والخطر أعظم، بحسب التفاوت ما بين السعادتين في الدنيا والآخرة والشقاوة فيهما.

فلما تبين لي ما ذكرت وعرفت حقيقة ما وصفت؛ تبين لي أعدائي وشياطيني ومخالفِّي ومَن يُريد أن يغويني عن رشدي ويضلني عن هُدائي الذي دعاني إليه ربي وإلهي وأوصاني به وما نصحني نبيِّي — عليه السلام — ببيانه لي، وعلمت أنني إن لم أقبل وصية ربي ونصيحة نبيِّي وأني متى توانيت وتركت الاجتهاد في مخالفة أعدائي وعداوتهم غلبوني وظفروا بي وأسروني وملكوني واستخدموني في أهوائهم ومراداتهم المشاكلة لأفعالهم السيئة، وصارت تلك الأشياء عادة لي وجبله في وطبيعة ثانية، فتصير

نفسى الناطقة — التى هى جوهرةٌ شريفةٌ — شيطانةٌ مثلهم، فأكون قد هلكت وبقيت فى عالم الكون والفساد مع الشياطين معدبًا كما قال الله سبحانه: ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ الآية.

ثم تفكرتُ وعرفتُ وتبين لي أنى إذا قبلت وصية ربي ونصيحة نبيى واقتديت بهما، واستعنت بربي وشمرت واجتهدت وخالفت هوى نفسى الشهوانية وعاديت نفسى الغضبية وحاربت أعدائى المخالفين لنفسى الناطقة؛ فإنى أظفر بهم وأغلبهم بقوة ربي وأملكهم بإذنه وأستعبدهم بحوله وقوته، وأكون ملكًا عليهم وسلطانًا، ويصيرون كلهم عبيدًا لي وخدمًا وخولًا، فأصرفهم تحت أمر نفسى الناطقة ونهيتها، وتكون هى عند ذلك ملكًا من الملائكة بإظهار أفعالها الحسنة وأعمالها الزكية وأخلاقها الجميلة وأرائها الصحيحة ومعارفها الحقيقية، وتكون هاتان النفسان الباقيتان؛ أعني: الشهوانية والغضبية، عبيدين مقهورين لها وتحت أمرها ونهيتها، ويكون جميع أخلاقهما وسجاياهما كالجنود والأعوان والخدم والعبيد للنفس الناطقة، مسوسين بسياسةٍ عادلة، جارية على هذا السداد، كما رُسِمَ فى الشريعة الوضية أو فى الموجبات العقلية، فأكون عند ذلك قد فعلت ما وصَّانى به ربي بقولي وفعلي بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية، وقال لنيبه — عليه السلام: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ الآية.

فلما تبين لي ما ذكرت وعرفت حقيقة ما وصفت؛ نظرت عند ذلك فى أحوالى، وتفكرت فى تصاريف أموري؛ فوجدت بنية هيكلى مركبة من أخلاط ممتزجة، متضادة القوى، مركوزة فيها شهوات مختلفة، فتأملتها فإذا هى كأنها نيران كامنة فى أحجار كبريتية، ووجدت وقودها هى المشتتهيات من ملاذ الدنيا ونعيمها، ووجدت اشتعال تلك النيران عند الوقود كأنها حريقٌ لا يُطفأ، ولهب لا يخمد، أو كأمواف بحر متلاطمة، أو رياح عاصفة تدمر كل شيء، أو كعساكر أعداء حملت فى غارة؛ وذلك أنى وجدت حرارة شهوات المأكولات والمشروبات فى نفسى عند هيجان نار الجوع والظمأ كأنها لهبُ النيران التى لا تُطفأ.

ووجدت نفسى الشهوانية عند الأكل والشرب من الشره؛ كأنها كلابٌ وقعت على جيف تنهش، ووجدت حرارة الحرص فى نفسى عند هيجان نار الطمع كأنها حريقٌ تلهب الدنيا كلها، ووجدت نفسى عند ذلك كأنها وعاءٌ لا يمتلئ من جميع ما فى الدنيا من المتاع، ووجدت حرارة الغضب فى نفسى الحيوانية عند هيجان نار الحركة كأنها حريقٌ ترمي بشرر كالقصر، ورأيتها عند هيجان حرارة نار الافتخار والمباهاة كأنها خير خليفة الله

وأشرفهم، ورأيتهما عند هيجان نار حرارة شهوة الرياسة وتملكها لها كأن الناس كلهم عبيد لها وخول، ورأيتهما عند هيجان حرارة نار شهوة الكرامة وطلبها لها كأنها دين لازم حال.

ورأيتهما عند هيجان نار طلب خدمة خولها كأنها ترى الطاعة لها حتمًا فريضة كالطاعة لله، وكالحتم والفريضة، ورأيتهما عند قضاء ما يجب عليها من حق من حقوق غيرها متوانية في تأديته كأنها ناقلة أجمال، وكأنها عليها أحمالٌ ثقيلة، ورأيت حركتها عند اللهو واللعب كأنها مجنونة والهة سكرانة، ورأيتهما عند محبة المدح والثناء عليها كأنها أعقلُ الناس وأفضلهم وأجلهم، ورأيتهما عند هيجان نار الحسد كأنها عدو يريد خراب الدنيا وزوال النعم عن أهلها وحلول النقم بهم، وعلى هذا المثال وجدت ورأيت سائر أخلاقها الرديئة وخصالها المذمومة وأعمالها السيئة وأفعالها القبيحة وآرائها الفاسدة، فعلمتُ عند ذلك أن هذه كلها نيرانٌ لا تخدم، وحريقٌ لا يطفأ، وأعداء لا يتصالحون، وحرب لا تهدأ، وقتال لا يسكن، وداء لا يبرأ، ومرض لا يشفى، وعناءٌ طويل، وشغل لا يفرغ منه إلى الموت.

فشمزت عند ذلك بالعزم الصحيح والنية الصادقة، وشدت وسطي بإزار الحزم، وأخذت سلاح الاجتهاد، وارتديت براءة الورع، ولبستُ قميصَ الحياء وتسربلتُ سربال الجد، ووضعتُ على رأسي تاج الزهد في الدنيا، وأثبت قدمي على التقوى، وأسندت ظهري إلى الله بالتوكل عليه، وجعلت شعاري الخوف منه والرجاء، وزممت قوَى نفسي بالنهي، وفتحت عيني بالنظر إلى إشارة المعلم، وجعلت دليلي حُسن الظن بربي، وسلكتُ منهاج السنة، وقصدت الصراط المستقيم للقاء ربي، وناديته نداء الغريق، ودعوته دعوة المضطر، وأقررت بالعجز والتقصير، وطرحتُ نفسي بين يديه بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتضرعت إليه مثل الصبي إلى والده الشفيق الرفيق، فلما رأني ربي على تلك الحال سمع ندائي، وأجاب دعائي، ورحم ضعفي، وأعطاني سُؤلي، وأمَدَّنِي بجنوده، ودَلَّنِي على مكاييد أعدائي، فغزوتهم مع ملائكته، وأظفرتني بهم، وأعانني عليهم، وحرسني من غرورهم، وأحرزني من خطواتهم، وسلمت من خطر كيدهم، وفزت بالغنيمة سالمًا غانمًا، ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ وجند الله كانوا هم الغالبيين، وحزب الشيطان كانوا هم الخاسرين، وكل هذا ﴿مَنْ فَضَّلَ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

(١٧) فصل في حكاية أُخرى

عن وليٍّ من أولياء الله تعالى لما تفكر في معنى التكليف والبلوى، ولم يتجه له وجهُ الحكمة فيها، قال في مناجاته: رب خلقتني ولم تستأمرني، وتوفيتني ولم تستشرنني، وأمرتني ونهيتني ولم تخبرني، وسلطت عليَّ هوى مؤذياً وشيطاناً مغوياً، وركبت في نفسي شهوات مركوزة، وجعلت في عيني دنيا مزينة، وخوفتني وزجرتني بوعيد وتهديد، وقلت لي: فاستقم كما أمرت، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيلي، واحذر الشيطان لا يغوينك، والدنيا لا تغرنك، وتجنب شهواتك لا تردك، وأمانيك وأمالك أن تلهيك، وأوصيك بأبناء جنسك فدارهم، ومعيشة الدنيا فاطلبها من وجه الحلال.

وأما الآخرة فلا تنسها، ولا تعرض عنها فتخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسرانُ المبين، فقد حصلت يا رب بين أمور متضادة، وقوى متجاذبة، وأحوال متغالبة، فلا أدري كيف أعمل، ولا أي شيء أصنع، وقد تحيرتُ في أموري، وضلت عني حيلتي، فأدركني يا رب وخذ بيدي، ودلني على سبيل نجاتي وإلا هلكت.

فأوحى الله سبحانه إليه وألقى في سره وألهمه وقال: يا عبدي ما أمرتك بشيء تعاونني فيه، ولا نهيتك عن شيء كان يضرني إن فعلته، بل إنما أمرتك لتعلم بأن لك رباً وإلهاً هو خالقك ومصورك ورازقك ومنشيك وحافظك وهاديك وناصرك ومعينك، ولتعلم بأنك محتاج في جميع ما أمرتك به إلى معاونتي وتوفيقي وهدايتي وتيسيري وعنايتي، ولتعلم أيضاً بأنك محتاج في جميع ما نهيتك عنه إلى عصمتي وحفظي ورعايتي، وإنك محتاج في جميع متصرفاتك وأحوالك في جميع أوقاتك من أمر دنياك وآخرتك ليلاً ونهاراً إلى تأييدي لك، وأنه لا يخفى عليَّ من أمرك صغيرة ولا كبيرة سرّاً وعلانية، وليتبين لك وتعرف أنك محتاج ومفتقر إليَّ وأنت لا بد لك مني، فعند ذلك لا تعرض عني ولا تنساني، بل تكون في دائم الأوقات في ذكرني، وفي جميع أحوالك تدعوني، وفي جميع حوائجك تسألني، وفي جميع متصرفاتك تخاطبني، وفي جميع خلواتك تناجيني وتشاهدني وتراقبني، وتكون منقطعاً إليَّ عن جميع خلقي ومتصلاً بي دونهم، وتعلم أنني معك حيث ما تكون أراك ولا تراني، فإذا عرفت هذه كلها وتيقنت وبان لك حقيقة ما قلت وصحة ما وصفت، تركت كل شيء وراءك وأقبلت عليَّ وحدك، فعند ذلك أقربك مني وأوصلك إليَّ وأرفعك عندي وتكون من أوليائي وأصفيائي وأهل جنتي في جوارِي مع ملائكتي مكرماً مفضلاً فرحاً مسروراً منعماً ملتذاً آمناً أبداً دائماً سرمداً.

فلا تظن بي يا عبدي الظن السوء، ولا تتوهم عليّ غير الحق، واذكر سالف إنعامي عليك وقديم إحساني إليك وجميل آثي لديك؛ إذ خلقتك ولم تكن شيئاً مذكوراً خلقاً سوياً، وجعلت لك سمعاً لطيفاً وبصراً حاداً وحواس دراية وقلباً نكياً وفهماً ثاقباً وذهنًا صافياً وفكرًا لطيفاً ولساناً فصيحاً وعقلاً رصيناً وبنية تامة وجناناً ثابتاً بصورة حسنة وأعضاء صحيحة وأدوات كاملة وجوارح طائعة.

ثم ألهمتكَ الكلامَ والمقال وعرفتكَ المنافع والمضار وكيفية التصرف في الأحوال والصنائع والأعمال وكشفت الحجب عن بصرك، وفتحت عينيك لتنظر إلى ملكوتي، وترى عجائب فعلي وتقدير مجاري الليل والنهار والأفلاك الدوارة والكواكب السيارة، وعلمتكَ حساب الأوقات والأزمان والشهور والأعوام، وسخرت لك ما في البر والبحر من المعادن والنبات والحيوان تتصرف فيها تصرف الملاك، وتتحكم عليها تحكّم الأرباب، فلما رأيتك متعدياً وجائرًا ظالمًا طاغيًا باغيًا متجاوزًا للحدود والمقدار؛ عرفتكَ الحدود والأحكام والقياس والمقدار والعدل والإنصاف والحق والصواب والخير والمعروف والسيرة العادلة؛ ليدوم لك الفضلُ والنعمة، وينصرف عنك العذاب والنقم، وعرضتُك لما هو خيرٌ وأفضلٌ وأجلُّ وأشرفٌ وأعزُّ وأكرم وألذُّ وأنعم، ثم أنت تظن بي ظنون السوء وتتوهم غير الحق.

يا عبدي إذا تعذر عليك فعلُ شيء مما أمرتكَ به، فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كما قال حملةُ العرش لَمَّا ثقل عليهم حمله، وإذا أصابتكَ مصيبة، فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، كما يقول صفوتي وأهل ولايتي، وإذا زَلَّتْ بك القدمان في معصيتي، فقل كما قال صفيي آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ إلى آخر الآية، وإذا أشكل عليك أمر وأهمك رأيٌ وأردت رشدًا وقولًا صوابًا، فقل كما قال خليلي إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ إلى آخر الآيات إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وإذا أصابتكَ مصيبة أو غم أو حزن، فقل كما قال يعقوب إسرائيل: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَعَلِمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ...﴾ الآية، وإذا جرت منك خطيئة، فقل كما قال موسى نجبي: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الآية، وإذا صرفت عنك معصية، فقل كما قال يوسف الصديق: ﴿وَمَا أُرِيءُ نَفْسِي﴾ الآية، وإذا ابتليت بفتنة فافعل كما فعل داود خليفتي: ﴿فَاسْتَعْفَرَ رَبِّي وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وإذا رأيت العصاة من خلقي والخطائين من عبادي ولا تدري ما حكمي فيهم فقل كما قال المسيح رُوحِي: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وإذا استغفرتني وطلبت عفوي فقل

كما قال محمد نبيي صلى الله عليه وآله وأنصاره: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ إلى آخر السورة، وإذا خفت من عواقب الأمور ولا تدري بماذا يختم لك، فقل كما قال أصفهائي: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

(١٨) فصل في فضل التوبة والاستغفار والدعاء

واعلم يا أخي، أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن الله — عَزَّ وَجَلَّ — لم يذكر ذنوب أنبيائه وخطاياهم في القرآن شنة عليهم ولا تقييحًا لآثارهم ولا لسوء الثناء عليهم، ولكن ليكون للباقيين قودة بهم في التوبة والندامة والرجوع عن الذنوب والاستغفار لله — عَزَّ وَجَلَّ — والإنابة إليه، كما أمر الله بقوله: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُنتَهِرِينَ﴾؛ يعني: الذين لم يذنبوا، وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ الآية، وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لولا أن بني آدم إذا أذنبوا تابوا واستغفروا فيغفر الله لهم لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يَذْنُبُونَ فَيَتُوبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ.» وإنما ذكرنا هذه الحكايات؛ لكي ما تتفكر فيها وتعتبر، وما ذكر الله من أخبار رسوله وقصص أوليائه. فلا تياس من روح الله، ولا تقنط من رحمته إذا سمعت قول الذين لا يعلمون، وذلك أن قومًا من أهل الحشوية والجدل يتعصبون في الورع من غير حقيقة، ولا معرفة بأحكام الدين، فيكفرون المؤمنين بالذنوب، ويُفَسِّقُونَهُمْ ويحكمون لهم بالخُلُودِ في النار بغير علم ولا بيان، بل بقياساتٍ لفقوها لهم، وسولوها بعقولهم الناقصة، وحكموا بها بزعمهم فلا جرم أنهم انقطعوا عن الله، ويئسوا من روحه، وقنطوا من رحمته.

واعلم يا أخي، أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن لكل طائفة من المؤمنين وجماعة من المتدينين صناعة ينفردون بها عن غيرهم أو حرفة يمتازون بها عن سواهم، وأن من صناعة أولياء الله وعباده الصالحين الدعاء إلى الله بالتزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة على بصيرة ومعرفة ويقين وحقيقة — كما ذكر الله تعالى وأخبر عنهم واحدًا واحدًا.

من ذلك حكاية عن رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، ومن ذلك قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ الآية، وقوله

حكاية عن نفر من الجن قولهم: ﴿يَا قَوْمَنَا أَحْبَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية، ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الآية.

ومن ذلك قوله حكاية عن أحد الأخوين في الدنيا: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ وقوله حكاية عن أخ مؤمن في الآخرة قوله لأهل الجنة: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَتُنكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى آخر الآية، ومن ذلك قوله حكاية عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ الآية.

ومن ذلك قوله حكاية عن السحرة قولهم لفرعون: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيات، ومن ذلك قوله حكاية عن العلماء المستبصرين في أمر الآخرة: إذ قالوا لقومهم المريدين الحياة الدنيا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ﴾ إلى آخر الآية، ومن ذلك قول أصحاب طالوت: وقال الذين لا يعلمون لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين، ومن ذلك قول أتباع المسيح: إذ قال المسيح من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، وقول أتباعه أيضا لما سمعوا القرآن: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية، ومن ذلك قول المؤمنين العارفين المستبصرين: ﴿رَبَّنَا لَا تَرْغُ قُلُوبُنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وآيات كثيرة في القرآن في صفات المؤمنين وعلامات أولياء الله وكلام عباد الله الصالحين.

فهذه الكلمات والأقوال وأمثالها من كلام أولياء الله وعباده الصالحين المستبصرين؛ تدل على أنهم يعرفون حقيقة المعاد وحقيقة أمر الآخرة، وهؤلاء العلماء بأسرار النبوات والمتخرجون بالرياضات الفلسفية، وهم ورثة الأنبياء، وصناعتهم الدعاء إلى الله وإلى الدار الآخرة التي هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون، يعني أبناء الدنيا.

ومن صناعتهم أيضا التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة بضرور الأمثال والوصف البليغ، والمواظب الحسنة والحكمة البالغة والتذكار والبشارة والإنذار بمعرفة واستبصار ويقين ودراية بلا شك ولا ريبة، وقال الله تعالى في مدحهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ومن علامات أولياء الله أيضا صفات عباد الصالحين أنهم لا يذكرون في مجالسهم وخلواتهم أحدا إلا الله ولا يتفكرون إلا في مصنوعاته ولا ينظرون إلا إلى فنون إحسانه

وعظيم إنعامه وجميل آثمه، ولا يعلمون إلا الله، ولا يخدمون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، ولا يرجون إلا منه، ولا يسألون إلا هو، ولا يخافون غيرَه، وهم من خشيتِه مشفقون؛ كل ذلك لصحة آرائهم وتحقق اعتقادهم في ربهم وشدة استبصارهم أنه لا يقدر على ذلك بالحقيقة إلا الله تعالى، وهذا الاعتقادُ الحق والرأي الصحيح الجميل، ينتج لهم من صحة معرفتهم بربهم وتيقن علمهم به؛ وذلك أنهم يرونه رؤية الحق في جميع متصرفاتهم، ويشاهدونه في كل حالاتهم، لا يسمعون إلا منه، ولا ينظرون إلا إليه، ولا يرون غيره على الحقيقة، فمن أجل ذلك انقطعوا إليه عن الخلق، واشتغلوا بالخالق عن المخلوق، وبالرب عن المربوب، وبالصانع عن المصنوع، وبالمسبب عن السبب، وتساوت عندهم الأماكن والأزمان، وانمحقت الأغيارُ عند رؤيتهم حقيقته، فتركوا الشك وأخذوا باليقين، وباعوا الدنيا بالدين، ورَبِحُوا السلامة من التعب والعناء، وعاشوا في الدنيا آمنين، ورحلوا عنها سالمين، ووصلوا إلى الآخرة غانمين؛ لأنهم كانوا في الدنيا محسنين، وما على المحسنين من سبيل.

وقد ذكر الله تعالى نعت هؤلاء القوم في القرآن في آيات كثيرة وأثنى عليهم ومدحهم، ووردت عن النبي — عليه السلام — أخبارٌ كثيرةٌ في نعمتهم وصفتهم ومدحهم وحُسن الثناء عليهم، ومن ذلك ما روي عنه ﷺ أنه قال: لا يزال في هذه الأمة أربعون رجلاً من الصالحين على ملة إبراهيم الخليل — عليه السلام — فقيل: يا رسول الله: خَبَرْنَا عن ملة إبراهيم عند ربه، فقال: إنه كان حنيفاً مسلماً سليم القلب، وذلك أنه لما همَّ به قومه يقذفونه في النار بكت الملائكة في السماء رحمة له، فأوحى الله سبحانه إلى جبرائيل أن الحقه وأَعْنَهُ إن استعان بك، ف جاء جبرائيل — عليه السلام — وهو في المنجنيق ليرمى به في النار، فقال له: يا إبراهيم هل لك من حاجة؟ فلشدة تعلق قلبه بربه وتوكله عليه وثقته بوعده ويقينه بتخليصه إياه واستغناؤه عن سواه، قال: أما إليك فلا، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، ويقال: إن من هؤلاء الأربعين رجلاً أربعة منهم الأبدال، وإنما سُمُّوا الأبدال؛ لأنهم بُدِلوا خَلْقًا بعد خلق، وصُفُّوا تصفية بعد تصفية. وذلك أن هؤلاء الأربعين منتقون من جملة أربعمائة من الزاهدين العارفين المحققين، وهؤلاء الأربعمائة منتقون من أربعة آلاف من المؤمنين التائبين المخلصين، وكلما مضى شخصٌ من الأربعة قام في رُتبته شخصٌ من الأربعين، وإذا مضى شخصٌ من الأربعين قام في رُتبته شخصٌ من الأربعمائة، وإذا مضى شخصٌ من الأربعمائة ارتقى إلى منزلته شخصٌ من الأربعة الآلاف، فبلغ مرتبته وقام مقامه، وكلما مضى شخصٌ من الأربعة الآلاف ارتقى مكانه بدلاً منه واحدٌ من المؤمنين التائبين المخلصين، فبلغ درجته وقام مقامه.

وإليهم أشار أمير المؤمنين علي — عليه السلام — بقوله لكميل بن زياد: أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدرًا، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح حقيقة اليقين إلى آخر كلامه، وفيهم يقول: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى.

وإليهم أشار موسى — عليه السلام — بقوله في مناجاته: يا رب إنني أجد في التوراة نعت رجال كادوا يكونون أنبياء من قوة التمييز والمعرفة والصلاح، من هم يا رب؟ اجعلهم من أمتي، فأوحى الله تعالى إليه وقال الله: تلك أمة أحمد، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾.

واعلم يا أخي بأن هؤلاء القوم الذين تقدم ذكرهم هم ورثة أنبياء الله وخلفاء رُسله في الأرض، وأن الذي ورثوه منهم إنما هو العلم والإيمان والتعبد وقبول التأييد والإلهام والزهادة في الدنيا وترك طلبها والرغبة في الآخرة والاشتياق إليها، وذلك أنهم متشبهون بالملائكة في أفعالهم وأخلاقهم وسيرتهم من تركهم الشهوات الجسمانية، وإعراضهم عن اللذات الحسية المركوزة في الطبيعة، بالامتناع عنها بعد المقدرة عليها مع شدة مجاذبة الطبيعة لهم إليها.

وهم يتركونها باجتهادٍ منهم وعناية شديدة بعد الفكر والروية، ويختارون الشدة على الرخاء، والتعب على الراحة، ومخالفة الهوى وحمل ثقل التعبد على النفس؛ وكل ذلك لمرضاة الله والافتداء بأنبيائه ورُسله في سنة الدين، فلا جرم أنهم ملائكة بالقوة، فإذا فارقت نفوسهم أجسادهم كانت ملائكة بالفعل، فهذا الذي كان الغرض من رباط النفس بالجسد أن تصير النفس الناطقة ملكًا من الملائكة بالفعل بعدما كانت بالقوة.

واعلم يا أخي بأنه لو لم يكن في قوة النفس الناطقة أن تصير ملكًا بالفعل لَمَا جاءت الوصية من الله تعالى لها بأمرها بالتشبه بالملائكة في أفعالها وأخلاقها وسيرتها، ولا كانت موعودةً بملاقاتها ومخاطبتها مثل قوله — جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: المؤمنين عند قبض أرواحهم، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى يطول تعدادها.

واعلم يا أخي أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الصالحين هم الذين سماهم الله تعالى أولي الألباب وأولي النهى وأولي الأبصار وهم أولياء الله وأحبَّوهُ، وإليهم أشار بقوله تعالى

إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ وهم المفلحون وهم الفائزون، وإليهم أشار رسول الله ﷺ في وصيته لأبي هريرة بقوله: عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا، وإن طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا، قال: من هم يا رسول الله؟ عدهم لي وصفهم حتى أعرفهم، قال: قومٌ من أمتي في آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء، إذا نظر إليهم الخلائق ظنّوهم أنبياء مما يرون من حالهم؛ حتى أعرفهم أنا بسيماهم فأقول: أمتي أمتي؛ ليعرف الخلائق أنهم ليسوا بأنبياء، ويمرون مثل البرق والريح يغشى أبصار الجميع نورهم، قلت: يا رسول الله مُزني بمثل عملهم لَعَلِّي ألحق هم، قال: يا أبا هريرة إن القوم ارتكبوا طريقاً صعباً لحقوا بدرجة الأنبياء، آثروا الجوع بعدما أشبعهم الله، والعطش بعدما أرواهم الله، والعري بعدما كساهم الله، تركوا ذلك رجاء ما عند الله، تركوا الحلال مخافة حسابه، صحبوا الدنيا بأبدانهم من غير أن تعلق بشيء منها قلوبهم، تعجب الأنبياء والملائكة من طاعتهم لربهم، فطوبى لهم، وددت أن الله جمع بيني وبينهم، ثم بكى رسول الله ﷺ شوقاً إلى رؤيتهم، ثم قال: إذا أراد الله سبحانه بأهل الأرض عذاباً، فنظر إليهم إن كان واحد منهم صرف العذاب عنهم، فعليك يا أبا هريرة بطريقتهم، فمن خالف طريقتهم وقع في شدة الحساب.

وقال رسول الله ﷺ: طوبى لإخواني، قيل: يا رسول الله، أولسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، وأولئك إخواني، قيل: من هم إخوانك يا رسول الله — صلى الله عليك؟ قال: قومٌ يكونون في آخر الزمان يؤمنون بي ولم يروني، يصدقونني ويتبعونني، هم إخواني وأنتم أصحابي طوبى لهم، وإليهم أشار بقوله في وصيته لأسامة بن زيد: عليك بطريق الجنة، وإياك أن تختلج بدونها، قال: يا رسول الله، ما أيسر ما يقطع به تلك الطريق؟ قال: الظمأ في الهواجر، وكسر النفوس عن لذة الدنيا، يا أسامة، عليك بالصوم؛ فإنه يقرب إلى الله، إنه ليس شيء أحب إلى الله من ریح فم الصائم وترك الطعام والشراب لله تعالى، فإنك إن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل، فإنك تدرك بذلك أشرف المنازل في الآخرة وتحل مع النبيين — عليهم السلام — وتفرح الأنبياء والملائكة بقدوم روحك عليهم، ويصلي عليك أهل الجنان.

إياك يا أسامة ودعاء كل كبد جائع قد أذابوا اللحم، وأحرقوا الجلود في الرياح والسماثم، وأظمئوا الأكباد حتى غشيت أبصارهم، فإن الله سبحانه إذا نظر إليهم باهى كرام الملائكة بهم، بهم يصرف الله الزلازل والفتن حيث كانوا.

ثم بكى رسول الله ﷺ شوقاً إلى رؤيتهم حتى اشتد بكأؤُهُ وعلا نحيبُهُ وهاب الناس أن يتكلموا حتى ظنوا أنه أمرٌ حدث من السماء، ثم قال: ويح لهذه الأمة ما يلقي منهم

من أطاع الله فيهم، كيف يقتلونهم ويكذبونهم من أجل أنهم أطاعوا الله، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله والناس يومئذ على الإسلام؟ قال: نعم، قال: فيم يقتلون من أطاع الله؟ قال: يا عمر ترك القوم الطريق وركبوا فره الدواب، ولبسوا الحرير والديباج واللين من الثياب، وأكلوا الطيبات وشربوا بارد الشراب، وجلسوا على أرائكهم متكئين، وخدمهم أبناء فارس والروم، يتزين الرجل منهم زينة المرأة لزوجها، ويتبرج النساء بزي كسرى بن هرمز والملوك الجابرة، ويسمنون أبدانهم، ويتباهون بالكساء واللباس، فإذا نظروا أولياء الله وعليهم العباء منحنية أصلاهم، قد ذبحوا أنفسهم من شدة العطش، وإن تكلم منهم متكلم كذب وأبعد وطرد، وقيل: قرين الشيطان ورأس ضلالة، يحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، فأولوا كتاب الله بغير تأويله، واستدلوا أولياء الله وأخافوهم. يا أسامة، إن أقرب الناس إلى الله يوم القيامة من طال حزنه وجوعه وعطشه في الدنيا، هم الأخيار الأبرار الذين إن شهدوا لم يُعرفوا، وإن غابوا لم يُفتقدوا، يعرفهم أهل السماء، ويخفون على أهل الأرض، تشتاق إليهم البقاع، وتحف بهم الملائكة، ينعم الناس بالدنيا، وينعمون بالجوع والعطش، لبس الناس لين الثياب، ولبسوا الخشن، افترش الناس الوطاء، وافترشوا هم الجباه والركب، ضحك الناس وبكوا هم.

يا أسامة ألا لهم الشرف الأعلى يوم القيامة، وددت أني رأيتهم، وبقاع الأرض لهم رحبية، والجبار عنهم راض، والراغب إلى الله من رغب فيما رغبوا، والخاسر من خالفهم، تبكي الأرض إذا فقدتهم، ويسخط الجبار على بلد ليس فيه منهم أحد. يا أسامة إذا رأيت أحدهم في قرية فاعلم أنه أمان لأهلها، لا يعذب الله قوماً فيهم منهم أحد، اتخذهم يا أسامة لنفسك أصحاباً، عساك تنجو معهم، وإياك أن تسلك غير طريقهم فتزل قدمك فتهوي في النار.

يا أسامة ترك القوم الحلال من الطعام والشراب، طلبوا الفضل في الآخرة، ولم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف، أكلوا العلق ولبسوا الخلق، تراهم شعناً غبراً إذا رآهم الناس ظنوا أن بهم داءً وما بهم داءً، وظنوا أنهم خولطوا وما خولطوا، ولكن خالط القوم أمر عظيم، ظن الناس أن قد ذهبت عقولهم وما ذهبت، ولكن نظروا بقلوبهم إلى أمر إلهي، فهم في الدنيا عند أهلها يمشون بلا عقول.

يا أسامة عقلوا حين ذهبت عقول الناس، طوبى لهم وحسن مآب، ألا لهم الشرف الأعظم.

ويحكي عن بعضهم أنه كان يُسمع في خلواته وهو يقول: يا رب ويحي، كيف أغفل ولست بمغفول عني، أم كيف يهنتني العيش، واليوم الثقيل أمامي، أم كيف لا يطول

حزني، ولا أدري ما يكون من ذنبي، أم كيف أُوخِر عملي، ولا أدري متى يأتي أجلي، أم كيف أسكن إلى الدنيا وليست بداري أم كيف أجمعها وفي غيرها مقامي ومأواي، أم كيف تعظم رغبتني فيها والقليل منها يكفيني، أم كيف آمنُ فيها وأنا لا يدوم فيها حالي، أم كيف يشد حرصي عليها ولا ينفعني منها ما أخلفه لغيري، أم كيف أُوثرها، وقد طردت من أثرها قبلي، أم كيف لا أبادر بعلمي من قبل أن يتصرم منها مدتي، أم كيف لا أعمل في فكاك نفسي، قبل أن يغلق ذهني، أم كيف يشتد عجبني بها وهي مفارقة لي ومنقطعة عني.

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، قال: كان فيها مكتوباً عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، وعجبت لمن أيقن بالحساب كيف يعمل السيئات، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب بدنه، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، وعجبت لمن أيقن بالجنة كيف لا يعمل الحسنات، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ويروى عن أبي ذر — رحمة الله عليه — أنه قال: قلت لرسول الله أُوصيني، قال: عليك بتقوى الله، فإنه رأس أمرك، فقلت: زدني يا رسول الله، قال: عليك بذكر الله، فإنه رأس كل خير، وقراءة القرآن فإنه نور لك في السماء وذكر لك في الأرض، قلت: زدني، قال: عليك بالجهاد فإنه رهبانية هذه الأمة، قلت: زدني، قال: انظر إلى من دونك، ولا تنظر إلى من هو فوقك، قلت: زدني، قال: أقلّ الكلام إلا من ذكر الله؛ فإنك بذلك تغلب الشيطان، قلت: زدني، قال: أحب المساكين وجالسهم، قلت: زدني، قال: كن في الدنيا كأنك غريب وعدّ نفسك في الموتى، قلت: زدني، قال: قل الحق ولو كان مرّاً، قلت: زدني، قال: لا يأخذك في الله لومة لائم، قلت: زدني، قال: ارض من الدنيا بكسرة تقيم بها جسدك وخرقة توارى بها عورتك وظل تسكن فيه، قلت: زدني، قال: اكظم الغيظ، وأحسن إلى من أساء إليك، قلت: زدني، قال: إياك وحب الدنيا فإنه رأس الخطايا، إن الدنيا تهلك صاحبها، وصاحب الدنيا لا يهلكها، قلت: زدني، قال: انصح للناس كما تنصح لنفسك، ولا تعب عليهم بما فيك مثله، يا أبا ذر إنه لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق.

وقال رسول الله ﷺ: من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار سلا عن الشهوات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ويقال: إن الزهد في الدنيا مفتاح كل خير، والرغبة فيها مفتاح كل شر وخطيئة، وقيل في الحكمة: الدنيا قنطرة فاعبروها إلى الآخرة، ولا تعمروها، إنكم خلقتم للآخرة لا للدنيا، وإنما الدنيا دار العمل والآخرة دار الجزاء، وهي دار القرار ودار المقام ودار النعيم ودار الخلود.

(١٩) فصل في حسن التكليف

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الله تعالى كلم موسى بن عمران وناجاه باثني عشر ألف كلمة، يقول له في عقب كل كلمة: يا موسى ادن مني واعرف قدري، فأنا الله يا موسى، أتدري لم كلمتك من بين خلقي، واصطفيتك لرسالتي من بين بني إسرائيل؟ قال موسى: فمن عليّ يا رب، قال: لأنني أطلعت على أسرار عبادي، فلم أر قلباً أصفى لمودتي من قلبك، قال موسى — عليه السلام: لم خلقتني يا رب بعد أن لم أكن شيئاً؟ قال: أردت بك خيراً، قال: رب من عليّ، قال: أسكنك جنتي، وأدخلك دار كرامتي مع ملائكتي، فتخلد هناك منعماً، ملتذاً مسروراً.

قال فما الذي ينبغي لي أن أعمل؟ قال: لا يزل لسانك رطباً من ذكري، وقلبك وجلاً من خشيتي، وبدنك مشغولاً بخدمتي، ولا تأمن مكري إلى أن ترى رجلك في الجنة، قال: يا رب لم ابتليتني بفرعون؟ قال: إنما اصطنعتك على أن أخاطب بلسانك بني إسرائيل، فأسمعهم كلامي، وأعلمهم شريعة التوراة وسنة الدين وأدلهم على الآخرة، ومن اتبعك منهم ومن غيرهم كائناً من كان، يا موسى بلغ بني إسرائيل أنني لما خلقت السموات والأرض جعلت لهما أهلاً وسكاناً، فأهل سماواتي هم ملائكتي وخالص عبادي الذين لا يعصونني ويفعلون ما يؤمرون، يا موسى قل لبني إسرائيل وبلغهم عني أنه من قبل وصيتي ووفى بعهدي، ولم يعصني رقيته إلى رتبة ملائكتي، وأدخلته جنتي وجازيته بأحسن الذي كانوا يعملون.

يا موسى قل لبني إسرائيل وأبلغهم عني أنني لما خلقت الجن والإنس والحيوانات أجمع، ألهمتهم مصالح الحياة الدنيا، وعرفتهم كيفية التصرف فيها لطلب منافعها والهرب من المضار منها؛ كل ذلك بما جعلت لهم من السمع والبصر والفؤاد والتمييز والشعور أجمع، وهكذا ألهمت أنبيائي ورسلي والخواص من عبادي وعرفتهم أمر المبدأ والمعاد والنشأة الآخرة، وبيئت لهم الطريق وكيفية الوصول إليها.

يا موسى قل لبني إسرائيل يقبلون من أنبيائي وصيتي، ويعملون بها، واطمئن لهم عني أنني أكفيهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح الدنيا والآخرة جميعاً، ومن وقي بعهدي وقيت بعهده، كائناً من كان من بني آدم وألحقهم بأنبيائي وملائكتي في الآخرة دار القرار، قال موسى: يا رب لو خلقتنا في الجنة وكفيتنا محن الدنيا ومصائبها وبلاءها، أليس كان خيراً لنا؟ قال: يا موسى قد فعلت بأبيكم آدم ما ذكرت، ولكن لم يعرف حقي وقدر نعمتي، ولم يحفظ وصيتي، ولم يوف بعهدي بل عصاني فأخرجته منها، فلما تاب

وأَناب وعدته أَن أَرده إِلَـيها وأَلِيت على نَفْسي أَن لا يَدْخُلها أَحَدٌ من ذرِيتِه إِلا من قَبْل
وصِيتي وأُوفى بعَهدي، ولا يَنال عَهدي الظالمين، ولا يَدْخُل جَنتي المتكَبرون؛ لِأَنِّي جَعَلتُها
لِلَّذِينَ لا يَريدون علوًّا في الأَرْض ولا فسادًا والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ.

يا موسى ادع لعبادي وَذَكَّرْهُمُ الأَثِي؛ فَإِنَّهُم لا يَذْكُرُونَ مِنِّي إِلا كَل خَير سالفًا وخالفًا،
عاجلاً وأَجَلًا، يا موسى وِيلٌ لِمَن تَفَوَّته جَنتي، ويا حَسرة عليه وَندامة حين لا يَنْفَعانِه.

يا موسى خَلقت الجَنَّة يَوم خَلقت السَّماءات، وَزَيَّنَها بِألوانِ المَحاسن، وَجَعَلت نعيم
أهلها وَسُرورها رَوحًا وَرِيحانًا، فلو نَظر أَهل الدنْيا إِلَـيها نَظرةً من بَعِيد لَمَّا تَهَنَّؤا بِالحِياةِ
في الدنْيا بَعداها.

يا موسى هِي مَدخَرَةٌ لِأولِيائِي وَالصالحين من عبادي تَحيتهم يَوم يَلقونه سَلام
وَطوبى لَهم وَحَسَن مآبٍ.

قال موسى: يا رب قد شوقتني إِلَـيها، فَأَرِنِي يا رب لِأَنظُر إِلَـيها، قال: يا موسى، لا
يَهنتُكَ العِيش في الدنْيا بَعْد النَظر إِلَـيها؛ لِأَنَّكَ من أَبناء الدنْيا إِلى وَقْتٍ مَعْلوم، فَإِذا فارَق
الروح الجسد رَأيتُها، وَوصلت إِلَـيها وَدخَلتُها، وَتكون فِيها ما دامت السَّماءات والأَرْض،
فلا تَعْجَلْ يا موسى، وَاعْمَلْ كَمَا أَمَرْتُ، وَبَشِّرْ بَنِي إِسرائِيلَ بِالذِي بَشَرْتُكَ بِهِ، وَادْعُهُمُ إِلَـيها،
وَرَغِبْهُم فِيها، وَزَهِّدْهُم في الدنْيا.

فصل

وَاعلم يا أَحِي بِأَنَّ الرَغْبَةَ في الدنْيا مَعَ طَلبِ الأَخْرة لا يَجتمَعان، فَمَن زَهَد في الأَخْرة رَغِب
في الدنْيا وَمَن رَغِب في الأَخْرة زَهَد في الدنْيا، وَقال المَسِيح — عَلَيْهِ السَلام — في بَعْضِ
مَواظِهِ لِبَنِي إِسرائِيلَ: اعلَمُوا أَنَّ مِثْلَ دُنْياكُمْ مَعَ الأَخْرة كَمِثْلِ مَشْرِقِكُمْ وَمَغْرِبِكُمْ، كَلِما
أَقْبَلْتُمْ إِلى الغَربِ ازْدَدْتُمْ مِنَ المَشْرِقِ بَعْدًا، وَكَلِما أَقْبَلْتُمْ إِلى المَشْرِقِ ازْدَدْتُمْ مِنَ المَغْرِبِ بَعْدًا.
وَقال في بَعْضِ كُتُبِ بَنِي إِسرائِيلَ: رَغِبْناكُمْ في الأَخْرة فَلَم تَرَغِبُوا، وَزَهَّدْناكُمْ في الدنْيا
فَلَم تَزَهَّدُوا، وَخَوَّفْناكُمْ مِنَ النارِ فَلَم تَخافُوا، وَشَوَّقْناكُمْ إِلى الجَنَّةِ فَلَم تَشْتاقُوا، وَوَبَّخْناكُمْ
فَلَم تَبْكُوا، بَشَرِ القائِلِينَ بِأَنَّ الله سَيفًا لا يَنام، وَهو نارُ جَهَنَّمَ.

وَيقولُ اللهُ تَعالَى: يا ابنِ آدمَ خَيرِي إِلَـيكَ نازِلٌ، وَشَرِكِي إِلَيَّ صاعِدٌ، أَتَحِبُّ إِلَـيكَ بِالغَنى،
وَأنتُ تَتَبَعُضُ إِلَيَّ بِالْمَعاصِي، لا يَزالُ يَأْتِينِي كُلَّ يَومٍ مَلِكٌ كَرِيمٌ بِقَبِيحِ أَفْعالِكَ، يا ابنِ آدمَ،
أَما تَراقِبُنِي؟ أَما تَعَلِمُ أَنَّكَ بَعينِي؟ يا ابنِ آدمَ، اذْكَرْنِي عِندَ خَلاواتِكَ وَعِندَ حُضُورِ الشَهواتِ
الحِرامِ، وَاسأَلْنِي أَن أُنزِعَها مِنَ قَلْبِكَ وَأَعصِمَكَ عَنِ مَعْصِيَتِي وَأَبْغَضَها إِلَـيكَ وَأَيِّسِرْ لَكَ

طاعتي وأحببها إليك وأزينها في عينيك، يا ابن آدم، إنما أمرتُك ونهيتُك؛ لتستعين بي وتعتمد بحبلي؛ لئلا تستغني وتتولى عني، فأعرض عنك، وأنا الغني عنك وأنت الفقير إليّ، إنما خلقتك في الدنيا وسخرتها لك لتستعد للقاءى وتتزود منها للقدوم عليّ؛ لئلا تعرض عني وتخلد إلى الأرض، واعلم يا ابن آدم بأن الدار الآخرة خير لك من الدنيا، فلا تختر غير ما اخترت لك ولا تكره لقاى، فإنه من كره لقاى كرهت لقاءه، ومن أحب لقاى أحب لقاءه.

(٢٠) فصل في عظات مختلفة

تأمل يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، ما ترى من الأمور الدنيوية واعتبر بما تُشاهد فيها من تصاريقها بأهلها حالاً بعد حال، وتفكر فيما ذكرنا في هذه الرسالة من هذه الحكايات عن أنبياء الله وأوليائه وعباده الصالحين، وما وصفنا من أخلاقهم الحسنة وسيرتهم العادلة وأفعالهم الجميلة، فاجتهد أن تقتدي بهم وتسلك طريقهم، واستعن بالله واسأله التوفيق، وانظر إن استوى لك أن تكون في أعلى المراتب، فلا ترض لنفسك بأدونها، واحذر مخالفتهم وترك الاقتداء بهم، فإنهم أئمة الهدى ومصابيح الدجى والدعاة والهداة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهم حُجج الله على خلقه وصفوته من عباده، فالملح من اتباعهم، والخاسر من خالف طريقهم، هم صفوة الله وخيرته من خلقه. واعلم يا أخي بأنه ليس بين الله — عز وجل — وبين أحد من خلقه من قرابة، وأن أكرم عباده عنده أتقاهم، وأحبهم إليه أطوعهم له، وأكثرهم له ذكراً، وأكيسهم في الأمور وأشدهم اجتهاداً وأشدهم استعداداً للرحلة من الدنيا إلى الآخرة وأكثرهم زاداً للمعاد. واعلم أن أخفهم مؤنةً في الدنيا وأروحهم قلباً من زهد فيها، فبادر يا أخي وتزود من الدنيا لطريق الآخرة، فإن خير الزاد التقوى، فسارع إلى الخيرات، ونافس في الدرجات قبل فناء العمر ونفاد الأجل وقرب الفوت.

واعلم يا أخي بأن خير مناقب الإنسان العقل، وأفضل خصاله العلم، ولكل شيء خاصية، وخاصية العقل صحة التمييز ومعرفة الحقائق والسيرة العادلة وحسن الاختيار، فانظر الآن إن كنت عاقلاً، واختر من الأمور أفضلها ومن الأخلاق أجملها ومن الأعمال خيرها ومن المراتب أشرفها ومن المنافع أعمها وأدومها.

واعلم يا أخي بأن الآخرة أفضل من الدنيا، وأهلها أفضل من أهل الدنيا، وأخلاقهم أكرم من أخلاقهم، وسيرتهم أعدل من سيرهم، ومراتبهم أشرف ونعيمهم أدوم وسرورهم

أبقي، ولذاتهم أخلص، فانظر الآن على ما يقع اختيارك وكيف يكون ولأيهما تعمل؟ ولا يكن إيثارك — إن كنت عاقلاً — إلا للأخرة؛ فقد تبين لك الرشد من الغي، وعرفت الضلالة من الهدى، وميزت الصواب من الخطأ، وعلمت الحق من الباطل، وانزاحت العلة، وقد أذرت من أذرتك، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة؛ ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

فانظر الآن يا أخي إن كان لم يتبين لك بعد ما قد شرحناه من هذه الأوصاف، ولم ينبهك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ما حولناك، ولم يشفك ما ذكرناه ولم ينفعك ما وصفناه، فأبيت إلا التعمد والغمرة في طغيان أبناء الدنيا المغرورين بها، الغافلين عن الآخرة الجاهلين لها، بأن تقول: لا بد لي من الاقتداء بهم ومداخلتهم فيما هم فيه من الغرور ومزاحمتهم على ما هم مزدحمون عليه، ورضيت لنفسك بالتشبه بهم في سوء أخلاقهم، وتراكم جهالاتهم وفساد آرائهم وسوء أعمالهم وقبيح أفعالهم وسيرتهم الجائرة وأمورهم المسيئة وأحوالهم المتغايرة وتصاريقهم المختلفة وأسبابهم المتضادة، من عداوة بعضهم بعضاً وحسد بعضهم بعضاً وبغي بعضهم على بعض، وتكبرهم وتكاثرهم وتفاجرهم فيما هم فيه من أمور هذه الدنيا الدنية والاعتزاز بها، وما يتكلفونه بينهم من زخرف القول غروراً، ويتمكنون به من الكلام خداعاً وقلوبهم مملوءة غشاً وغلاً وحسدًا وكبراً وحرصاً وطمعاً وبغضاً وعداوة ومكرًا وحيلاً، مثل قوم دينهم التعصب واعتقادهم النفاق وأعمالهم الرياء، واختيارهم شهوات الدنيا، يتمنون الخلود فيها مع علمهم بأنه لا سبيل إليه، يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون، ويكسبون من الحرام، وينفقون في المعاصي، ويمنعون من المعروف، ويركبون كل منكر سكارى متمردون في طغيانهم يعمهون، لا يسمعون النداء، ولا يبصرون الهدى، ولا ينجح فيهم الوعظ ولا الذكر ولا الأمر ولا النهي ولا الوعد ولا الوعيد ولا الترغيب ولا التهيب ولا الزجر ولا التهديد، بل تراهم في غيهم يترددون، وفي طغيانهم يعمهون، مولون مدبرون عن الآخرة معرضون، على الدنيا يتكالبون تكالب الكلاب على الجيفة، منهمكين في الشهوات، تاركين للصلوات، لا يسمعون الموعدة، ولا تنفعهم التذكرة، فلا جرم أنهم يمهلون قليلاً ويمتعون يسيراً، ثم تجيئهم سكرة الموت بالحق، إن شاءوا أو أبوا، فيفارقون محبوباتهم على رغم منهم، ويتركون ما جمعوا لغيرهم، يتمتع بمال أحدهم حليل زوجته وامرأة ابنه وبعل ابنته وصاحب ميراثه، لهم المهناة وعليه الوبال ثقيل ظهره بأوزاره، معذب النفس بما كسبت يدها، يا حسرة عليهم قامت القيامة على أهلها، وفقك الله أيها الأخ للسداد، وهداك للرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد، إنه رءوف بالعباد.

(تمت رسالة الأخلاق والحمد لله والصلاة على رسوله مستنبط ينايغ الحكمة بصفاء
جوهره، والمقارع به أنوف الجاحدين لأوله ومصدره، والمفصح عن غرائبه وعلى آله وسلم،
حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.)